
اجاثا كريستي
جريمة فنّية

أجاثا كريستي
{1976 - 1890}

–الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

– بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

– كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

جَريمَةٌ فَنّية
By the Pricking of my thumbs

هذه الرواية تَبْحث عن بواعث الجريمة لامرأة قتلتْ العديدَ من الأطفال في غموض شديد ولم يَسْتطع أحد التوصّل إلى اكتشاف هذه الجريمة، إلى أن استطاعتْ السيدة «توبنس» وزوجها السيد «تومي» التوصّل إلى المجرم الحقيقي.

فقد تبيَّن أن السيدة «لنكستر» التي كانتْ تقيمُ بدار المسنِّين اختفتْ فجأة، وكانت السيدة «توبنس» قد رأتها عند زيارتها لخالة زوْجها (السيدة «آده»). فأخذت السيدة «توبنس» تبحث عنها بقصْد الاطمئنان عليها، حتى وجدتها في بيْت مهجُور في جهة نائيَة.

ثمن الكتاب

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الاردن	1.5 دينار	مصر	10 جنيهات
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	5 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	اليمن	400 ريال

ISBN 995338316-2
9789953383163

جَرِيمَةٌ فَنِّيَّةٌ

بونـارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعربّة

جريمة فنية
(18)

تأليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب الراحل

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك

للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

ص.ب 374 جونيه – لبنان

تلفون 00 961 9 212 666 فاكس 00 961 9 212 665

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي للصحافة – دار البشير – دار إي بي سي

الاسم الأصلي للرواية

BY THE PRICKING OF MY THUMBS

(1968)

الغلاف بريشة الفنان

عبد العال

الفصل الأول

كان السيد والسيدة "**بيريسفورد**" يتناولان الفطور مثلما كان المئات من الأزواج المتوسطي العمر يفطرون في هذا الوقت في "**إنجلترا**"، وكان يوما عاديا يبدو فيه أن السماء قد تمطر وإن لم يكن هذا بالأمر المؤكد. وكان شعر السيد "**بيريسفورد**" أحمر فيما مضى، لكن اللون الرمادي قد بدأ يكسوه الآن، كما ظهرت في شعر السيدة "**بيريسفورد**" الأسود خصلات رمادية مبعثرة هنا وهناك، وقد خطر لها مرة أن تصبغه ولكنها فضلت أن تتركه للطبيعة وإن غيرت لون أحمر الشفاه الذي تستعمله؛ لترفع من روحها المعنوية. كانا إذن زوجين عاديين متوسطي العمر، ولكن قد يضيف أحد الشبان: "آه، نعم إنهما لطيفان ولكنهما مملان تماما مثل جميع المسنين". ولكن السيد والسيدة "**بيريسفورد**" لم يكونا ليفكرا في نفسيهما كمسنين، وإنما كانا ينظران لنفسيهما كمن قد جاوز مرحلة الصبا بفترة قصيرة.. وكانا متحابين متفاهمين وأيامهما تمر بهدوء وانسجام. وكانت هناك بالطبع أيام عصيبة تمر بهما كأي إنسان. وفي هذا الصباح فض السيد "**بيريسفورد**" خطابا اطلع عليه بسرعة ثم أضافه إلى كومة صغيرة من الخطابات على يساره ثم أخذ خطابا آخر، ولكنه لم يفتحه وإنما ظل ممسكًا به وهو يحدق إلى محمصة الخبز، وظلت زوجته تراقبه برهة وجيزة قبل أن تقول:

– ما الأمر يا "**تومي**"؟

– ليس هناك أي شيء.. ماذا تظنين؟ وقالت له "**توبنس**":

– إنك كنت تفكر في أمر ما.

– لا أحسبني كنت أفكر في شيء.

– بل كنت تفكر.. هل حدث شيء؟

– كلا بالطبع.. ما الذي كان يجب أن يحدث؟ لقد تلقيت فاتورة السباك. وقالت "**توبنس**" بلهجة من فهم:

– آه.. وعلى ما أظن بأكثر مما كنت تنتظر.

– بالطبع فهذا هو الحال دائما. فسألته:

– هل الورقة التي كنت تتصفحها الآن فاتورة سمكري؟
– كلا بل هي طلب مساعدة لملجأ آخر للعجزة سيُفتتح قريبا.
– حسنا.. ولكن لماذا يبدو عليك القلق بسبب ذلك..؟
– إني لم أكن أفكر في هذا.
– حسنا.. ففيم كنت تفكر؟
– إنه ليس شيئا مهمًا في الحقيقة.. لقد فكرت فقط أنه ربما.. حسنا.. إني أفكر في الخالة "**آده**". وتلاقت نظراتهما، فمن المؤسف أنه يوجد في أيامنا هذه مشكلة.. يمكن أن تُسمى مشكلة الخالة "**آده**" في كل أسرة تقريبا.. وإن اختلفت الأسماء: الخالة "**أماليا**"، الخالة "**سوزان**"، الخالة "**كاتي**".. إلخ، فقد مضى الزمن الذي كانت فيه السيدات المسنات الوحيدات يعشن بسعادة في المنازل التي عشن فيها سنوات عديدة من قبل في رعاية خدم متفانين. وفي أحيان أخرى كان هناك عدد كبير من الأقارب الفقراء أو العوانس شبه المعتوهات، وكلهن يتطلعن إلى منزل مريح وثلاث وجبات من الطعام الشهي في اليوم وغرفة نوم مريحة. وكان العرض والطلب يتوافقان وكل شيء على ما يرام، أما الآن فالأمور تختلف. فالآن يجب تدبير أماكن في بيوت مناسبة للسيدات المسنات، والعمة "**بريمروز**" عمة والدة "**توبنس**" نفسها، كانت من مثيرات المتاعب المعروفات ومن المستحيل إرضاؤها، فإنها لا تكاد تدخل مؤسسة تكفل كل أنواع الراحة ومأوى مناسبًا للسيدات المسنات حتى تبعث لابنة أختها ببعض الخطابات تثني فيها على هذا البيت، ثم يكون النبأ التالي أنها خرجت من البيت غاضبة بدون أن تعطيهم إنذارًا وهي تقول: « مستحيل.. لم يكن بوسعي أن أبقى هناك دقيقة أخرى! » وفي خلال سنة تنقلت العمة "**بريمروز**" بين أحد عشر بيتا من هذه البيوت، وأخيرا بعثت خطابا تقول فيه إنها تعرفت على شاب لطيف جدا: « وهو في الحقيقة متفان جدا، وقد فقد والدته في سن مبكرة ويحتاج بشدة إلى من يعتني به، وقد أجرت شقة وإنه سيأتي للإقامة معي، وهذا أمر سيناسبنا تماما؛ فنحن متشابهان في أمور كثيرة، ولا حاجة بك لأن تقلقي من أجلي بعد ذلك يا عزيزتي "**برودنس**"، فقد رتبت مستقبلي وسأقابل محاميًا غدا؛ لأنه من الضروري أن أوصي بشيء لـ"**ميرفين**" في حالة وفاتي قبله، وهو أمر طبيعي، ولو أني أؤكد لك أنني في

هذه اللحظة أشعر بأني في أحسن صحة. وقد هرعت "توبنس" إلى الشمال (إذ وقعت هذه الحادثة في "أبردين") ولكن البوليس وصل قبلها وألقى القبض على "ميرفين" الجذاب الذي كانوا يبحثون عنه من مدة لاتهامه بالحصول على مال بالنصب. وقد ثارت العمة "بريمروز" وغضبت، واتهمت البوليس بالاضطهاد.. ولكن بعد أن حضرت المحاكمة –حيث حوكم في خمس وعشرين تهمة– اضطرت إلى تغيير رأيها فيه. وقال "تومي" :

– أظن أنه يجب أن أذهب لرؤية الخالة "آده" يا "توبنس"، فقد مر وقت طويل منذ رأيتها آخر مرة. وقالت "توبنس" بدون حماس:

– أظن أنك على حق. متى كانت آخر مرة؟ وفكر "تومي" ثم قال:

– بالتأكيد منذ حوالي عام؟

– بل أكثر من هذا.. أعتقد أنه أكثر من عام.

– آه، كم يمر الوقت سريعا، أليس كذلك؟ ليس بوسعي أن أصدق أن كل هذا الوقت قد مر، ولكني أعتقد أنك محقة يا "توبنس". من الفظيع أن ينسى المرء بهذه الطريقة. إني أشعر بوخز الضمير من أجل هذا.

– لا أظن أن هناك داعيا لذلك فإننا نرسل إليها أشياء وخطابات.

– نعم، أعرف ذلك فإنك بارعة في هذه الأمور، ولكن مع ذلك فإن المرء يقرأ في بعض الأحيان أشياء تثير قلقه.

– إنك تفكر في هذا الكتاب الفظيع الذي أخذناه من المكتبة، والذي يصف كيف أن الحياة فظيعة لهؤلاء المسنين الأعزاء وكيف يتألمون؟

– أظن أن هذه هي الحقيقة.. من واقع الحياة.

– نعم، فلابد من أن هناك أماكن من هذا النوع، وهناك أناس في غاية التعاسة ولا يستطيعون شيئا حيال ذلك، ولكن ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل إزاء هذا؟

– لا يستطيع شيئا إلا أن يكون حريصا بقدر الإمكان.. أن يحترس كثيرا عندما يختار المكان، وأن يتقصى الأمر ويتأكد أنه يوجد طبيب لطيف يعنى بها.. فقالت "توبنس" :

– يجب أن تعترف أنه لا يوجد من هو ألطف من الدكتور "موري".

– نعم، إن "موري" طبيب ورجل ممتاز، وهو طيب وصبور، ولو كان هناك شيء على غير ما يرام لأخبرنا.

– لذلك لا أظنُّ أن هناك ما يدعو لقلقك.. كم تبلغ من العمر الآن؟

– اثنين وثمانين.. كلا، كلا.. أعتقد أنها في الثالثة والثمانين. ما أقبح أن يعيش الإنسان بعد موت كل معاصريه! فقالت "توبنس":

– هذا شعورنا نحن، فهم لا يشعرون بهذا..

– ليس في وسع المرء أن يتحقق من صدق هذا.

– حسنا، إن خالتك "آده" لا تشعر بذلك.. أفلا تتذكر كيف كانت تروي لنا في ابتهاج عدد أصدقائها الذين ماتوا قبلها.. وكيف اختتمت حديثها بقولها: «أما عن "آمي مورجن" فقد سمعت أنها لن تعيش أكثر من ستة أشهر أخرى، وهي التي كانت دائما تقول إنني ضعيفة الصحة، ومن المؤكد تقريبا الآن أنني سأعيش أكثر منها بعدة سنوات..» هكذا كانت تفتخر. فقال "تومي":

– ومع كل.. بيد أن "توبنس" قاطعته بقولها:

– أعرف.. أعرف.. إنك تشعر مع كل هذا أن من واجبك أن تذهب لزيارتها.

– ألا تعتقدين أني على حق؟

– للأسف أعتقد فعلا أنك على حق.. على حق تماما. وأضافت ببعض الشجاعة:

– وسأذهب معك أيضا.

– ولماذا تأتين؟ إنها ليست خالتك.. كلا سأذهب وحدي..

– أبداً.. أنا أيضا أحب أن أتألم. سنتألم معا، إننا لن نستمتع بهذه الزيارة ولا أظن أن الخالة "آده" ستستمتع بها، ولكني أعرف أن هذه هي إحدى الأمور التي يجب القيام بها.

– كلا، لا أريدك أن تذهبي.. أفلا تتذكرين كيف كانت وقحة معك في آخر زيارة؟

– آه، إن هذا لا يضايقني فإن هذا في الغالب هو الجزء الوحيد من الزيارة الذي تستمتع به هذه الفتاة العجوز العزيزة، وأنا لا أبخل به عليها.

– إنك كنت دائما لطيفة معها، مع أنك لا تميلين إليها كثيرا.

– لا يمكن لأحد أن يحب الخالة "آده"، وفي رأيي أنه لم يحببْها أحد قط. فقال "تومي":

– لا يمكنني أن أملك نفسي من الشعور بالأسى على المسنين.

– أما أنا فيمكنني، فليس لي طبيعة لطيفة مثلك.

– إنك أكثر شراسة لأنك امرأة.

– أظن أن هذا قد يكون هو السبب، فليس لدى النساء وقت لكي يكنَّ غير واقعيات، وأعني بذلك أني أشعر بالأسى على الناس عندما يكونون مرضى أو مسنين إذا كانوا ظرفاء، أما إن لم يكونوا كذلك فإن الأمر يختلف كما يجب أن تعترف، وإذا كنت شرسة في سن العشرين، وبنفس الشراسة في سن الأربعين، وأكثر شراسة في الستين وشيطانة في الثمانين.. حسناً، أنا لا أرى لماذا يأسف المرء على أشخاص لمجرد أنهم مسنون.. ليس بوسع المرء أن يغير نفسه في الحقيقة، وأنا أعرف سيدات مسنات في غاية اللطف مع إنهنَّ في سن السبعين والثمانين مثل السيدة "**بوشون**" و"**ماري كار**" والسيدة "**بوبلت**".. إنهن جميعا أعزاء وظرفاء، وأنا على أتم استعداد لعمل أي شيء من أجلهن.

– حسنا حسنا.. كوني واقعية، ولكن لو كنت حقيقة تريدين أن تكوني نبيلة فلا تأتي معي.

– إني أريد الذهاب معك، فإني تزوجتك على السراء والضراء، والخالة "**آده**" هي بدون شك الضراء، ولذلك سأذهب معك، ويدي في يدك وسنأخذ لها باقة من الورد وعلبة شوكولاتة وربما مجلة.. بوسعك أن تكتب للآنسة.. ما اسمها؟ وتقول لها إننا سنأتي.

– في يوم من الأسبوع المقبل؟ بوسعي أن أذهب يوم الثلاثاء إذا كان هذا يناسبك.

– فليكن الثلاثاء.. ما اسم هذه المرأة؟ لا أستطيع أن أتذكره.. المديرة أو الملاحظة. آه.. الآنسة "**باكار**".

– ربما سيختلف الأمر هذه المرة.

– يختلف؟ بأية طريقة؟

– آه، لا أعرف.. قد يحدث شيء مشوّق..

– قد يحدث لنا حادث قطار.

– لماذا بحق السماء تريدين أن يقع لك حادث قطار؟

– لا أعرف في الواقع.. بالطبع.. إنه مجرد..

– مجرد ماذا..؟

– حسنا ستكون مغامرة، أليس كذلك؟ وربما استطعنا أن ننقذ أرواحنا أو نفعل شيئا مفيدا.. مفيدا وفي نفس الوقت مثيرا.

– يا له من أمل..

– أعرف، ولكن مثل هذه الأفكار تطرأ للمرء في بعض الأحيان..

❖❖❖❖❖

الفصل الثاني

ذهب "**تومي**" و"**توبنس**" إلى "**سوني ريدج**"، ذلك البيت الفيكتوري الكبير الذي تنزل به الخالة "**آده**". ودق "**تومي**" جرس الباب ففتحته خادمة شابة يبدو عليها الإرهاق، وأدخلتهما إلى غرفة جلوس صغيرة وهي تقول لاهثة قليلا:

– سأخبر الآنسة "**باكار**" فإنها تنتظركما وستنزل بعد دقيقة.. أرجو ألا يضايقكما الانتظار قليلا، فالأمر يتعلق بالسيدة "**كاروواي**" فقد بلعت كستبانا مرة أخرى.

وسألت "**توبنس**" بدهشة:

– كيف فعلت شيئا مثل هذا بحق السماء؟ وشرحت لهما الخادمة الأمر بإيجاز. إنها تفعل هذا لتلهو وهي تفعله دائما. وبعد قليل من الانتظار فُتح الباب ودخلت الآنسة "**باكار**" معتذرة، وكانت امرأة ضخمة ذات شعر فاتح في حوالي الخمسين يبدو عليها الهدوء والكفاءة، وهما صفتان كان "**تومي**" دائما معجبا بهما.

– إني آسفة إذ جعلتك تنتظر يا سيد "**بيريسفورد**". كيف حالك يا سيدة "**بيريسفورد**"؟ كم أنا سعيدة أنك أتيت أيضا. وقال لها "**تومي**":

– سمعت أن شخصا ما بلع شيئا.

– آه، هل أخبرتك "**مارلين**" بذلك؟ نعم، إنها السيدة "**كاروواي**" العجوز. إنها دائما

تبلع بعض الأشياء.. ومن الصعب أن نراقبها طوال الوقت كما تعلم، وبالطبع أننا نعرف أن الأطفال يفعلون ذلك ولكن يبدو أنها هواية مضحكة لامرأة عجوز، أليس كذلك؟ وهي هواية تزداد سوءا سنة بعد سنة، ويبدو أنها لا تؤذيها وهو الشيء الوحيد المبهج في هذا الأمر.

– ربما كان والدها ممن يبلعون السيوف.

– هذه فكرة شائقة جدا يا سيدة "**بيريسفورد**" ولعل فيها تفسيرا. ومضت الآنسة "**باكار**" تقول:

– لقد أخبرت الآنسة "**فانشو**" بمجيئك يا سيد "**بيريسفورد**" ولست أدري في الحقيقة إن كانت قد فهمت تماما أم لا، فإنها كما تعلم لا تستوعب دائما.

– وكيف حالها؟

– أخشى أنها تتدهور بسرعة، فإن المرء لا يعرف في الحقيقة كم تستوعب، وقد أخبرتها في الليلة الماضية بمجيئك، وقالت إنها متأكدة أني مخطئة؛ لأن هذا وقت الدراسة ويبدو أنها تعتقد أنك ما زلت في المدرسة.. إن العجائز تختلط عليهم الأمور في بعض الأحيان خصوصا بالنسبة إلى الزمن، وعندما ذكَّرتها بزيارتك هذا الصباح قالت فقط إن هذا محال إنك ميت.. حسنا.. إني أتوقع أنها ستعرفك عندما تراك.

– كيف حال صحتها؟ أكما كانت؟

– إنها في حالة لا بأس بها، وبصراحة لا أظن أنها ستعيش طويلا.. إنها لا تتألم بأي شكل، ولكن حالة قلبها لم تتحسن بل إنها أسوأ في الواقع.. ولهذا أحب أن تعرف ذلك لكي تكون مستعدا حتى إذا ماتت فجأة لم يكن في هذا صدمة لك. وقالت "**توبنس**":

– لقد أتينا لها ببعض الزهور. وقال "**تومي**":

– وبعلبة شوكولاتة.

– هذا كرم منكما وستسر كثيرا.. هل ترغبان في الصعود الآن؟ ونهض "**تومي**" و"**توبنس**" وتبعا الآنسة "**باكار**" التي تقدمتهما إلى السلم العريض، وبينما كانوا يمرون أمام إحدى الغرف في الطابق الأعلى فُتح باب فجأة وخرجت منه سيدة قصيرة

وهي تصيح بصوت حاد وعال:

– إني أريد الكاكاو.. إني أريد الكاكاو.. أين الممرضة "**جين**"؟ إني أريد الكاكاو.

وخرجت امرأة في ثياب الممرضات من الغرفة التالية وقالت:

– هيا هيا يا عزيزتي.. لا عليك.. إنك شربت الكاكاو منذ عشرين دقيقة.

– كلا يا "**نورس**".. إني لم أشربه.. هذا ليس صحيحا.. إني لم أشرب الكاكاو.. إني عطشى.

– حسنا، ستتناولين فنجانا آخر لو أردت.

– وكيف يمكن أن أتناول فنجانا آخر ما دمت لم أتناول أي فنجان؟ ومضوا في طريقهم وبعد أن طرقت الآنسة "**باكار**" بابا في آخر الدهليز فتحته ودخلت وقالت بمرح:

– ها هو ابن أختك جاء لزيارتك يا آنسة "**فانشو**".. أليس هذا أمرًا سارًّا؟ وانتصبت فجأة السيدة العجوز الراقدة في السرير بجوار النافذة، وكان لها شعر أبيض ووجه هزيل مكرمش وأنف كبير عال، ويبدو عليها الاشمئزاز. وتقدَّم "**تومي**" وقال:

– أهلاً يا خالتي "**آده**".. كيف حالك..؟ ولم تعره الخالة "**آده**" أي انتباه، وإنما توجهت بغضب بالحديث للآنسة "**باكار**":

– لا أعرف ماذا تعنين بإدخالك رجلا إلى حجرة سيدة. هذا أمر لم يكن لائقا إطلاقا في شبابي..! وتزعمين أنه ابن أختي.. من هو؟ سباك أم كهربائي..؟ فأجابت الآنسة "**باكار**" برفق:

– هيا هيا.. هذا ليس لطيفا منك.. وقال لها "**تومي**":

– أنا ابن أختك "**توماس بيريسفورد**". وقدَّم لها علبة الشوكولاتة:

– وقد أتيت لك بعلبة شوكولاتة.

– لا تستطيع أن تكسب رضائي بهذه الطريقة، فأنا أعرف طرازك مهما قلت.. من هذه المرأة؟ ونظرت إلى السيدة "**بيريسفورد**" بكراهية.

– أنا "**برودنس**" زوجة ابن أختك.

– ما أسخف هذا الاسم! مثل اسم خادمة.. لقد كان لعمي الكبير "**ماثيو**" خادمة تسمى "**كومفورت**" ولكن زوجته "**فاني**" سريعا ما تدخلت وقالت لها إنها ستسميها

"**ريبيكا**" طالما هي في منزلها. واستطردت "**توبنس**" :

– لقد أتيت لك ببعض الزهور.

– إني لا أحب الزهور في غرفتي فإنها تستهلك كل الأكسيجين. فقالت الآنسة "**باكار**" :

– سأضعها لك في إناء.

– لن تفعلي شيئاً من هذا القبيل، وكان يجب أن تتعلمي من طول معرفتك بي أني أعرف ما أريد.

– يبدو أنك في حالة جيدة يا خالة "**آده**" .. في حالة استعداد للمقاتلة.

– إني ند لك، ماذا تعني بادعائك أنك ابن أختي؟ ما هو اسمك؟ "**توماس**" ؟

– نعم "**توماس**" أو "**تومي**" ..

– لم أسمع بك أبدا. كان لي فقط ابن أخت واحد اسمه "**ويليم**" وقد قُتِل في الحرب الماضية وخيرا فعل فلو أنه عاش لانحرف.. إني تعبة. وانحنت الخالة "**آده**" على وسائدها واستدارت نحو الآنسة "**باكار**" :

– انصرفي بهما من هنا ولا يصح أن تُدخلي عليَّ غرباء لرؤيتي. فقالت الآنسة "**باكار**" :

– كنت أظن أن زيارة لطيفة كهذه قد ترفع معنوياتك. وضحكت الخالة "**آده**" مستهزئة، وقالت "**توبنس**" بمرح:

– حسنا، سننصرف وسأترك الزهور فقد تغيرين رأيك. هيا يا "**تومي**" . واستدارت نحو الباب، وقال "**تومي**" :

– إلى اللقاء يا خالة "**آده**" .. إني آسف لأنك لم تتذكريني. وظلت الخالة "**آده**" صامتة حتى خرجت "**توبنس**" والآنسة "**باكار**" ، وتأهب "**تومي**" ليتبعها وعند ذلك رفعت صوتها وقالت:

– أنت.. ارجع.. إني أعرفك تماما.. إنك "**توماس**" وكنت أحمر الشعر فيما مضى.. كان شعرك في مثل لون الجزر، ارجع سأتحدث معك.. أنا لا أريد المرأة ولا جدوى من تظاهرها بأنها زوجتك فأنا أدرى بها.. وما كان يصح أن تأتي بهذا الطراز من النساء هنا.. تعال واجلس في هذا المقعد وحدِّثني عن والدتك العزيزة.. وأضافت

وهي تشير بيدها نحو "توبنس" التي كانت مترددة عند الباب:

– اذهبي أنت. وانصرفت "توبنس" في الحال. وقالت الآنسة "باكار" وهي في غاية الهدوء إن مزاجها منحرف اليوم.. ففي بعض الأحيان تكون في غاية اللطف، وهو شيء من الصعب تصديقه. وجلس "تومي" على المقعد الذي أشارت إليه الخالة "آده" وقال لها بهدوء إنه لن يستطيع أن يحدثها كثيرا عن والدته لأنها ميتة منذ حوالي أربعين عاما.. ولم تهتز الخالة "آده" من هذا القول وإنما قالت:

– يا للعجب..! هل مضى كل هذا الوقت؟ إن الزمن يمر بسرعة. لماذا لا تتزوج؟ تزوج امرأة لطيفة تعني بك فإنك تتقدم في العمر، وستنقذك من هؤلاء النساء الخليعات ومن مجيئك بهن والتحدث عنهن كما لو كُنَّ زوجاتك.

– أرى أني سأضطر أن أجعل "توبنس" تأتي بشهادة زواجنا في الزيارة التالية.

– هل جعلت منها امرأة شريفة؟

– إننا متزوجان منذ أكثر من ثلاثين عاما، ولدينا ابن وابنة وهما أيضا متزوجان.

– إن المشكلة هي أن أحدا لا يخبرني بشيء، ولو أنك أخبرتني بآخر الأحداث. ولم يناقشها "تومي" فإن "توبنس" كانت قد نصحته في يوم ما: «لو قال لك أي شخص فوق الخامسة والستين إنك مخطئ فلا تناقشه أبدا.. ولا تقل إنك على حق. اعتذر في الحال وقل إنها غلطتك وأنت آسف جدا ولن تفعل هذا مرة أخرى». وخطر لـ"تومي" أن هذا هو ما يجب أن يفعله مع الخالة "آده" فقال:

– إني آسف جدا يا خالتي "آده"، وأخشى أني أميل للنسيان بمرور الزمن، فليس للجميع ذاكرة قوية مثلك. وسُرَّت الخالة "آده" وقالت:

– إنك على حق.. وإني آسفة إذ استقبلتك ببعض الخشونة، ولكني لا أحب أن يستغفلني أحد، وهم في هذا المكان يدخلون عليَّ أي شخص وقد يكون في نيتهم سرقتي أو قتلي في سريري، فكيف أقبل استقبال كل من يأتون به إليَّ؟

– أظن أن هذا بعيد الاحتمال.

– لا يمكنك أن تعرف أبدا.. انظر لما تقرؤه في الجرائد وما تسمعه من الناس، إني لا أصدق كل ما يقال لي ولكني متيقظة.. أتصدق..؟ لقد أتوا برجل غريب في يوم ما لم أره من قبل قط وزعم أنه الدكتور "ويليمز" وقال: «إن الدكتور "موري" في إجازة

وأنا شريكه الجديد ». وأنَّى لي أن أعرف أنه شريكه الجديد؟ هذا هو فقط ما قاله هو.

– وهل كان الشريك الجديد حقًّا؟

– حسنا، إنه كان كذلك في الواقع.. ولكن ما كان لأحد أن يعرف بالتأكيد.. لقد أتى في سيارة ومعه حقيبة سوداء مثل التي يستعملها الأطباء. إن ما أريد أن أشير إليه هو أن بوسع أي شخص أن ياتي لمكان مثل هذا ويقول إنه طبيب، وفي الحال تبتسم الممرضات ويضحكن ويُكنَّ طوع أمره.. يا لهن من فتيات غبيات! ولو أقسمت المريضة أنها لا تعرفه لقلن إنها تنسى الناس. وقالت الخالة "آده" بحزم:

– إني لا أنسى وجه أي شخص.. كيف حال عمتك "كارولين"؟ إني لم أتلق أنباء منها منذ مدة. هل رأيتها قريبا؟ وقال "تومي" معتذرا:

– إن عمتي "كارولين" ماتت منذ خمسة عشر عاما. ولم يبد على الخالة "آده" الحزن لهذه الوفاة، فإن العمة "كارولين" لم تكن أختها وإنما كانت مجرد قريبتها، وقالت ببعض السرور:

– يبدو أن الجميع يموتون.. ليس لديهم مقاومة، هذه هي علتهم.. قلب عليل، ذبحة صدرية، ضغط عال، التهاب رئوي مزمن، التهاب المفاصل إلخ.. إنهم جميعا قوم ضعفاء.. وهكذا يتكسَّب الأطباء معاشهم فإنهم يعطونهم علبا عديدة من الدواء المختلف الألوان.. هه.. إن التداوي بالعسل الأسود على أيام جدتي كان خيراً من الأدوية الحديثة. ليس بوسع المرء أن يثق بالأطباء أليس كذلك؟ فقد قيل لي إنه تجري هنا حوادث تسمم لكي يأخذوا قلوبا للجراحين وهي بدعة طبية جديدة.. وأنا لا أعتقد أن هذا حقيقي فإن الآنسة "باكار" ليست من الطراز الذي يقبل شيئا كهذا. اعتذرت الآنسة "باكار" للسيدة "بيريسفورد" عن المقابلة التي قوبلت بها من الخالة "آده" ثم أدخلتها حجرة الجلوس وتركتها؛ لأن نزيلة أخرى استدعتها. وجلست "توبنس" في الغرفة المريحة، وكانت هناك سيدة عجوز لطيفة تشرب كوبا من الحليب (اللبن) فابتسمت لـ"توبنس" بطريقة ودية وقالت:

– صباح الخير.. هل أتيت للإقامة هنا أم أنت زائرة؟

– إني زائرة فلي خالة هنا وزوجي معها الآن، فقد فكرنا أن وجود شخصين قد يكون مرهقا عليها.

– ما أرق هذا منكما! ورشفت الحليب (اللبن) واستطردت :

– إني لأتساءل.. هل تريدين شيئا، شاي أو ربما قهوة؟ دعيني أدق الجرس.. إنهم حسنوا الخدمة جدا هنا.

– كلا، أشكرك..

– ربما فضلت كوبا من الحليب (اللبن).. إنه ليس مسموما اليوم..

– كلا، ولا حتى هذا.. إننا لن نبق طويلا.

– حسنا ما دمت لا تريدين حقًّا، ولكن ليس في هذا شيء متعب، فلا أحد هنا يخطر له أنَّ أي طلب يمكن أن يكون متعبا ما لم يطلب المرء شيئا مستحيلا.

– أظن أن خالتي التي نزورها تطلب أحيانا أشياء مستحيلة.. إنها الآنسة "**فانشو**".

– آه، الآنسة "**فانشو**".. وبدا أن هناك شيئا يجعلها متحفظة، ولكن "**توبنس**" مضت تقول بمرح:

– إنها على ما أظن شرسة وكانت دائما كذلك.

– إنها فعلا لكذلك.. وكانت لي خالة مثلها تماما بالأخص عندما كبرت، ولكننا نحب جميعا الآنسة "**فانشو**" فبوسعها أن تكون مسلية جدا عندما تريد.

– نعم، أظن أن هذا ممكن.

– إنها ذكية جدا، وعلى فكرة أنا اسمي السيدة "**لنكستر**". فقالت "**توبنس**":

– وأنا السيدة "**بيريسفورد**".

– أخشى أن المرء يستمتع الخبث والقيل والقال بين حين وآخر، فإن وصفها لبعض النزلاء هنا مسل جدا بالخبث، ولو أن المرء ما كان يجب أن يجده كذلك.

– هل تقيمين هنا منذ مدة طويلة؟

– منذ مدة.. نعم دعيني أرى.. سبعة، ثمانية أعوام.. وتنهدت وقالت:

– إن المرء يفقد اتصاله بالناس وبالأمور، وكل أقاربي الذين على قيد الحياة يعيشون في الخارج.

– إن هذا أمرٌ محزنٌ بلا شك.

– كلا، فأنا لا أميل إليهم كثيرا، وفي الواقع إني حتى لا أعرفهم جيدا. لقد مرضت بمرض شديد.. شديد جدا.. وكنت وحيدة في العالم، ولذلك رأوا أن من الأفضل لي

أن أعيش في مكان كهذا، وأعتقد أني سعيدة الحظ جدا؛ لأني جئت هنا فهم طيبون جدا والحديقة جميلة، وأنا أعرف أني لا أريد أن أعيش وحيدة؛ لأن الأمور تختلط عليّ جدا فأنا لا أتذكر دائما الأمور التي حدثت.

– إني آسفة لذلك، وأظن أن المرء لابد أن يكون به علة أليس كذلك؟

– بعض الأمراض مؤلمة جدا، ولدينا هنا امرأتان مسكينتان مصابتان بروماتيزم في المفاصل، وهما تتألمان بشدة؛ ولذلك فإني لا أعتقد أنه يهم كثيرا أن تختلط الأمور قليلا على المرء فهذا ليس مرضا مؤلما جسمانيا على أي حال. فأمنت "**توبنس**" :

– أعتقد أنك على حق تماما. وفُتح الباب ودخلت فتاة ترتدي معطفا أبيض وتحمل صينية صغيرة عليها فنجان قهوة وطبق به بسكويت، ووضعت الصينية بجوار "**توبنس**" وقالت:

– لقد رأت الآنسة "**باكار**" أنك ربما كنت راغبة في فنجان قهوة.

– شكرا لك. وخرجت الفتاة من الغرفة وقالت السيدة "**لنكستر**" :

– أرأيت كم هم حسنوا الخدمة؟

– نعم فعلا. وسكبت "**توبنس**" قهوتها وبدأت تشربها، وجلست المرأتان في صمت لبرهة ثم قدمت "**توبنس**" إلى جليستها البسكويت، ولكن السيدة العجوز هزت رأسها وقالت:

– كلا، شكرا لك يا عزيزتي فأنا أحب الحليب (اللبن) فقط. ثم وضعت كوبها الخالي واستندت إلى المقعد وأقفلت عينيها، وظنت "**توبنس**" أنه ربما كان هذا هو الوقت الذي تغفو فيه قليلا في الصباح؛ ولذلك ظلت صامتة ولكن فجأة فتحت السيدة "**لنكستر**" عينيها وبدا أنها استيقظت ونظرت إلى "**توبنس**" وقالت:

– أرى أنك تنظرين إلى المدفأة. وأجفلت "**توبنس**" قليلا وقالت:

– آه، هل كنت أفعل ذلك؟

– نعم، إني كنت أتساءل (وانحنت للأمام وخفضت صوتها) سامحيني هل كان طفلك المسكين؟ وأخذت "**توبنس**" تفكر قليلا وترددت ثم قالت:

– أنا.. كلا لا أعتقد كذلك.

– إني كنت أتساءل وقد فكرت أنه ربما هذا هو سبب مجيئك، فيجب أن يأتي

شخص ما في يوم ما وربما سيفعلون ذلك.. ثم الطريقة التي كنت تنظرين بها إلى المدفأة... إنه هناك خلف المدفأة.

- آه، هل هو كذلك؟ وقالت السيدة "**لنكستر**" في صوت منخفض:

- دائما نفس الوقت من النهار. الحادية عشرة وعشر دقائق، نعم إنه دائما نفس الميعاد في كل صباح. وتنهدت ومضت تقول:

- إن الناس لا تفهم.. لقد قلت لهم ما أعرفه.. ولكنهم لا يصدقونني.. وشعرت "**توبنس**" بالارتياح في هذه اللحظات عندما فُتح الباب ودخل "**تومي**" فنهضت "**توبنس**" وقالت:

- هأنذا مستعدة. ومضت نحو الباب وهي تقول:

- إلى اللقاء يا سيدة "**لنكستر**". وخرجا معا وودعتهما الآنسة "**باكار**"، وبعد ثلاثة أسابيع ماتت الخالة "**آده**" وهي نائمة.

❖❖❖❖❖

الفصل الثالث

تركت الخالة "**آده**" مبلغا صغيرا أوصت به لملجأ للقطط وبعض المنقولات والملابس، وقرر "**تومي**" الذهاب إلى "**سوني ريدج**" لتسلمها وإخلاء غرفتها بعد أن تم دفنها في قريتها حيث مدافن الأسرة، ورأت "**توبنس**" أن تصحبه لأنها كانت تريد أن ترى السيدة "**لنكستر**" مرة أخرى. ووقفا أمام الباب الرئيسي وتنفست "**توبنس**" نفسا عميقا ثم قالت:

- كل شيء على نفس الحال. فقال "**تومي**":

- ولم لا؟

- لا أعرف.. إنه مجرد شعور.. شيء يتعلق بالزمن. إن الوقت يمر بساعات مختلفة في أماكن مختلفة، وهناك بعض الأماكن تشعر عندما تعود إليها أن الزمن مر بها بسرعة، وأن أشياء كبيرة حدثت وتغيرت، ولكن هنا يشعر المرء أن الوقت توقف وكل شيء كما كان..

– لا أعرف عم تتحدثين. ستقفين هنا طوال الوقت تتحدثين عن الزمن ولا تدقين الجرس؟ إن الخالة "آده" ليست هنا وهذا أمر مختلف. وضغط على الجرس.

– هذا هو الشيء الوحيد المختلف. ستكون السيدة العجوز جالسة تتناول الحليب (اللبن) وتتحدث عن أطفال مساكين، والسيدة الأخرى ستكون قد بلعت الكستبان، وستخرج السيدة المضحكة العجوز من غرفتها وهي تصيح طالبة الكاكاو، وستهبط الآنسة "**باكار**" السلم و.. وفُتح الباب وقالت شابة ترتدي مريلة نايلون:

– السيد والسيدة "**بيريسفورد**"؟ إن الآنسة "**باكار**" تنتظركما. وقابلتهما الآنسة "**باكار**" في المدخل وقدَّمت لهما التعزية دون إسراف، فإن عمر الإنسان على حسب الإنجيل سبعون عاما، والوفيات في مؤسساتها تحدث في الغالب بعد هذه السن وهي أمور متوقعة. وقالت الآنسة "**باكار**":

– حضوركما غاية في الكرم، لقد رتبت كل شيء لتفحصوه، وأنا سعيدة جدا؛ لأنه أمكنكما الحضور بهذه السرعة؛ لأن لديَّ ثلاثة أو أربعة أشخاص ينتظرون غرفة خالية. أنا متأكدة أنكما ستفهمان، فإني لا أحاول أن أستعجلكما بأية طريقة.

– إننا نفهم بالطبع.

– إن كل شيء موجود في الغرفة التي كانت تحتلها آنسة "**فانشو**". وفتحت الآنسة "**باكار**" باب الغرفة الشاغرة وكان السرير خاليا وعليه ملابس مطبَّقة بعناية، وكانت الدواليب الخاوية مفتوحة، وقالت "**توبنس**":

– ما الذي تفعلوه في العادة.. أعني ما الذي يفعله الناس بالملابس والأشياء المشابهة؟ وكانت الآنسة "**باكار**" كالعادة كفء، فقدمت النصيحة قائلة:

– بوسعي أن أذكر اسم جمعيتين أو ثلاثا ستسر كثيرا بتلقي أشياء من هذا النوع. لقد كان لديها معطف فراء جيد ومعطف آخر من نوع جيد، ولكني لا أظن أنك ستستعملينها، ولكن ربما تودين أن تتصدقي بها على أشخاص تعرفينهم. ولكن "**توبنس**" هزت رأسها نفيا. وقالت الآنسة "**باكار**":

– كان لديها بعض المجوهرات، وقد حافظت عليها ووضعتها توًّا في الدرج اليمين للتسريحة، وستجدينها هناك. فردد "**تومي**":

– شكرا كثيرا لك لكل المتاعب التي تجشمتها. وكانت "**توبنس**" تحدق إلى صورة

فوق الشماعة.. كانت صورة زيتية صغيرة تمثل منزلا أحمر فاتحا بجوار قناة بجانب قنطرة صغيرة.. وكان هناك قارب صغير ليس به أحد مرسوما تحت القنطرة كما كانت هناك شجرتان من أشجار الحور عن بعد.. كان منظرا لطيفا ولكن "**تومي**" تساءل عن سبب تحديق "**توبنس**" إليها بهذا الاهتمام. وتمتمت "**توبنس**":

– كم هذا مضحك! ونظر "**تومي**" إليها بتعجب فإن الأمور التي تجدها "**توبنس**" مضحكة هي –كما يعرف من خبرته الطويلة– ليست بالتي توصف حقيقة بهذه الصفة.

– ماذا تعنين يا "**توبنس**"؟

– إنه لأمر مضحك لي، لم ألاحظ هذه الصورة عندما جئت هنا من قبل، ولكن الغريب في الأمر هو أنني رأيت هذا المنزل في مكان ما.. أو ربما كان منزلا يشبه المنزل الذي رأيته.. إني أتذكره جيدا.. من الغريب أنه ليس بوسعي أن أتذكر متى وأين.. هل لاحظتها أنت يا "**تومي**" عندما كنا هنا آخر مرة؟

– كلا، ولكني لم أكن أنظر بإمعان. فقالت الآنسة "**باكار**":

– لا أعتقد أنك كنت سترين هذه الصورة عندما كنتما هنا أخيرا؛ لأني متأكدة أنها لم تكن معلقة فوق الشماعة، إنها في الواقع ملك نزيلة أخرى وقد أهدتها لخالتك.. فلقد أعربت الآنسة "**فانشو**" عن إعجابها بالصورة فأهدتها إياها هذه السيدة وصممت على ذلك. فقالت "**توبنس**":

– آه فهمت، إذن فلا يمكن أن أكون قد رأيتها من قبل، ولكني ما زلت أعرف المنزل جيدا، ألا تشعر بذلك يا "**تومي**"؟

– كلا.. وأومأت الآنسة "**باكار**" بابتسامة وتركت الغرفة وهي تغلق الباب خلفها. ومضيا يفحصان الأثاث الخاص بالخالة "**آده**"، واختار "**تومي**" مكتبا جميلا من طراز الريجنسي، واختارت "**توبنس**" منضدة صغيرة والصورة الزيتية كما أخذت المجموعة الصغيرة من المجوهرات لابنتها "**ديبورا**"، وقررت إهداء جميع الملابس بمشورة الآنسة "**باكار**". وذهبا للبحث عن الآنسة "**باكار**" وشرح لها "**تومي**" أنه سيدبر نقل المكتب والمنضدة الصغيرة إلى منزلهما، وأنه سيدبر بيع باقي الأثاث بالمزاد وسيترك للآنسة "**باكار**" اختيار الجمعيات التي ترسل لها الثياب إن لم يكن في ذلك مشقة لها. وقالت

"**توبنس**" :

– لا أعرف إن كانت هنا من تحب أن تأخذ المعطف الفرو فإنه معطف جميل. ربما إحدى صديقاتها المقربين، أو ربما ممرضة اعتنت على وجه الخصوص بالخالة "**آده**" .

– هذه فكرة كريمة منك يا سيدة "**بيريسفورد**" ولكنني أخشى أنه لم يكن للآنسة "**فانشو**" أصدقاء مقربون بين النزيلات، ولكن الآنسة "**أوكيف**" الممرضة خدمتها كثيرا وكانت طيبة ولبقة جدا معها، وأظن أنها ستسر وتشعر بالفخر إذا أخذت المعطف. وأردفت "**توبنس**" :

– ثم هناك الصورة الزيتية إني أود أن آخذها، ولكن لعل السيدة التي أهدتها إياها تود أن تستردها. أظن أنه يجب أن نستأذنها. وقاطعتها الآنسة "**باكار**" :

– آه، إني آسفة يا سيدة "**بيريسفورد**" فإني أخشى أننا لن نتمكن من هذا، فالسيدة التي أهدتها إياها هي السيدة "**لنكستر**" ولم تعد معنا. واندهشت "**توبنس**" واستوضحت الآنسة "**باكار**" الأمر فأخبرتها أن بعض أقارب "**لنكستر**" وهما السيد والسيدة "**جونستون**" اللذان كانا يقيمان منذ أعوام في "**إفريقيا**" عادا لـ"**إنجلترا**" ، وأن السيدة "**جونستون**" جاءت وأخذت السيدة "**لنكستر**" لتقيم معها رغم عدم رغبة هذه الأخيرة في مبارحة "**سوني ريدج**" ، ولكن لم تستطع الآنسة "**باكار**" أن تفعل شيئا لأن آل "**جونستون**" هما اللذان ينفقان على السيدة "**لنكستر**" . وتساءلت "**توبنس**" :

– منذ متى كانت تقيم السيدة "**لنكستر**" هنا؟

– أوه! منذ حوالي ستة أعوام على ما أعتقد، وهذا ما جعلها تشعر أن "**سوني ريدج**" بيتها.

– نعم.. نعم.. بوسعي أن أفهم هذا. وعبست وألقت نظرة عصبية على "**تومي**" ، ثم رفعت رأسها بتحد وقالت:

– إني آسفة لرحيلها؛ فقد كان شعوري عندما كنت أتحدث معها أني قابلتها من قبل، وقد بدا لي وجهها مألوفا لديً.. ثم تذكرت بعد ذلك أني سبق أن قابلتها مع صديقة لي تدعى السيدة "**بلينكسوب**" ، وكان في نيتي أن أتأكد من ذلك في زيارتي التالية للخالة "**آده**" ، ولكن الأمر يختلف بالطبع إذا كانت قد عادت لعائلتها.

– إني أفهم تماما يا سيدة "**بيريسفورد**" فلو استطاعت أية واحدة من نزيلاتنا أن تتصل بأحد الأصدقاء القدماء أو باي شخص ممن كانوا يعرفون أقاربهن فإن هذا يرفع من معنوياتهن، وليس في وسعي أن أتذكر أنها ذكرت اسم السيدة "**بلينكسوب**" ولكني لا أظن أنها كانت ستذكرها على أي حال.

– هل بوسعك أن تحدثيني عنها قليلا، من هم أقاربها وكيف جاءت هنا؟ وأخبرتها الآنسة "**باكار**" أن ما تعرفه عنها قليل، فقد تلقت عدة خطابات من سيدة تدعى السيدة "**جونستون**" تستفهم فيها عن "**سوني ريدج**" الذي كانت قد سمعت عنه من بعض الأصدقاء، وبعد ذلك جاء كاتبان تابعان لمكتب "**إيكولز**" للمحاماة في نفس الموضوع وطلبوا منها أن تقبل السيدة "**لنكستر**" وأخبروها أن السيدة "**جونستون**" ستأتي بها بعد أسبوع لو كان لديها مكان خال، وبعد أسبوع حضرت السيدة "**جونستون**" مع السيدة "**لنكستر**" التي ارتاحت للمكان، وطلبت السيدة "**جونستون**" الإذن لها بإحضار بعض الأثاث الخاص بها ووافقتها على ذلك؛ لأن هذا يجعل الإنسان أكثر سعادة. وفهمت أن السيدة "**جونستون**" قريبة بعيدة لها، وأنها تود أن تطمئن عليها؛ لأنها ستذهب مع زوجها للإقامة في "**إفريقيا**" لعدة سنوات، وكانت كل الترتيبات المالية تتم من خلال مكتب المحاماة، ولم يزرها أحد إلا رجل لطيف جاء منذ حوالي عام من طرف السيد "**جونستون**". فقالت "**توبنس**":

– وبعد ذلك نسيها الجميع.

– أخشى ذلك. إنه أمر محزن أليس كذلك؟ ولكنه يحدث عادة، ومن حسن الحظ أن أغلب نزيلاتنا هنا يُكوِّن صداقات مع نزيلات أخريات لهن نفس الطباع أو تجمعهن ذكريات مشتركة، وهكذا تستقر الأمور بسعادة وأظن أن أغلبهن ينسين حياتهن الماضية. فقال "**تومي**":

– أظن أن بعضهن.. وتردد وهو يبحث عن كلمة مناسبة ثم أشار ببطء إلى جبينه، وقالت له الآنسة "**باكار**" إنها تفهم ما يعنيه وأكدت له أنها لا تقبل حالات عقلية، ولكنها تقبل الحالات المتوسطة مثل فقدان الذاكرة والشيخوخة المتقدمة واللاتي يتخيلن أشياء، فبعضهن يتخيلن أنهن شخصيات تاريخية مثل "**ماري أنطوانيت**" وكلها تخيلات لا تؤذي وحالات لا يُخشى منها. وترددت "**توبنس**" برهة ثم قالت:

- السيدة "**لنكستر**" .. هل كانت هناك دائما أشياء تتذكرها عن هذه المدفأة بالذات أم كان الأمر متعلقا بأية مدفأة؟ واندهشت الآنسة "**باكار**" :

- مدفأة؟ إني لا أفهم ما تعنيه.

- إنه شيء قالته ولم أفهمه .. ربما كان لديها ذكرى غير لطيفة متعلقة بمدفأة أو ربما قرأت قصة أفزعتها.

- جائز. وقالت "**توبنس**" :

- إني ما زلت قلقة من أجل هذه الصورة التي أهدتها للخالة "**آده**".

- في الحقيقة إني أعتقد أنه لا داعي لقلقك يا سيدة "**بيريسفورد**" وأظن أنها نسيت كل شيء بخصوصها الآن، فأنا لا أعتقد أنها كانت عزيزة عليها بوجه خاص، إنها فقط سُرَّت لأنها أعجبت بها وأسعدها أن تهديها لها، وأنا متأكدة أنها ستكون سعيدة لأنها أعجبتك فأخذتها.

- سأكتب للسيدة "**جونستون**" لو ذكرت لي عنوانها وأستأذنها في الاحتفاظ بها.

- إن العنوان الوحيد الذي لديَّ هو الفندق الذي نزلتا فيه في "**لندن**" وهو فندق "**كليفلند**" شارع "**جورج.و.أ**". إن السيدة "**جونستون**" تنوي أن تقضي هناك مع السيدة "**لنكستر**" أربعة أو خمسة أيام وبعد ذلك تسافران للإقامة مع بعض الأقارب في "**اسكتلندا**" وأظن أن فندق "**كليفلند**" سيكون لديه العنوان.

- حسنا، شكرا لك -والآن بخصوص المعطف الفرو.

- سأذهب لآتي بالآنسة "**أوكيف**". وبعد أن خرجت مازحها "**تومي**" عن حديثها عن السيدة "**بلينكسوب**" الوهمية وهي شخصية مزيفة كانت "**توبنس**" قد اخترعتها في أثناء الحرب عندما قامت بدور في كشف حلقة جاسوسية. وفُتِح الباب بعد قليل وظهرت الآنسة "**باكار**" في صحبة شابة طويلة ذات شعر أحمر ونمش في وجهها ترتدي ثياب الممرضات.

- هذه هي الآنسة "**أوكيف**"، السيد والسيدة "**بيريسفورد**" لديهما شيء يودان أن يقدمانه لك. عن إذنكم، إن إحدى المريضات تطلبني. وأهدتها "**توبنس**" المعطف الفرو وسرت به الآنسة "**أوكيف**" :

- آه، إنه جميل! إنه أكثر مما أستحق، لماذا لا تأخذينه لنفسك.

– إنه أكبر من مقاسي. إنه يناسب فتاة طويلة مثلك فإن الخالة "**آده**" كانت طويلة.

– آه، إنها كانت سيدة عجوز عظيمة، لابد أنها كانت جميلة جدا وهي فتاة. فقال "**تومي**":

– أظن ذلك ولو أنها كانت –بدون شك– متعبة لمن يعتني بها.

– إنها كانت كذلك فعلا ولكنها كانت لديها روح بديعة، ولم يكن هناك أي شيء يثبِّط من عزيمتها، ولم تكن غبية وكانت في غاية الذكاء، وستدهش لو عرفت كيف كانت تعرف كل ما يحدث هنا.

– ومع ذلك كانت عصبية.

– نعم تماما، ولكن الطراز الشاكي هو الذي يثير الأعصاب، الطراز الذي يشكو دائما ويتأوه، ولم تكن الآنسة "**فانشو**" ممثلة أبدا وكانت تروي قصصا رائعة عن أيامها الماضية، لقد ركبت مرة جوادا وصعدت به السلم في منزل ريفي كانت تنزل به أو هكذا قالت، هل هذا حقيقي؟ فقال "**تومي**":

– شيء لا أستبعده عنها.

– لا تستطيع أن تعرف أبدا ما يمكن أن تصدقه هنا لغرابة الروايات التي تحكيها هؤلاء العزيزات.. المجرمون الذين تعرفن عليهم، ويجب أن نخطر عنهم البوليس في الحال، وإلا كنا جميعا في خطر.

– أذكر أن سيدة ادعت أنها أُصيبت بتسمم في آخر مرة كنت فيها هنا.

– آه! هذه هي السيدة "**لوكيت**" وهذا يحدث لها كل يوم، ولكنها لا تريد البوليس وإنما تريد استدعاء طبيب فإنها مجنونة بهم.

– وسيدة أخرى –صغيرة الحجم– تطلب كاكاو.

– هذه السيدة "**مودي**".. إن المسكينة رحلت.

– أتعني أنها رحلت من هنا؟

– كلا، ماتت بذبحة صدرية مفاجئة جدا وهي التي كانت متفانية لخالتك– ولو أن الآنسة "**فانشو**" لم تكن لتخلو بها كثيرا –وكانت السيدة "**مودي**" كثيرة الكلام.

– سمعت أن السيدة "**لنكستر**" رحلت.

– نعم، لقد أتى أقاربها وأخذوها ولم تكن المسكينة تريد أن ترحل.

– ما هذه القصة التي روتها لي عن المدفأة في غرفة الجلوس؟

– آه، كان لديها قصص كثيرة – عن الأمور التي حدثت لها –والأسرار التي تعرفها.

– كانت تدور حول طفل.. طفل مخطوف! أو طفل قُتل.

– إن الأمور التي يتصورنها غريبة. إن التليفزيون هو الذي يوحي لهن بها في الغالب.

– هل تجدين في العمل هنا مع كل هؤلاء العجائز ضغطا على الأعصاب؟ إنه بدون شك عمل متعب.

– آه، كلا فأنا أحب العجائز؛ ولهذا تخصصت في هذا النوع من التمريض.

– هل أنت هنا منذ مدة؟

– منذ عام ونصف (وتوقفت قليلا) سأترك "**سوني ريدج**" في الشهر القادم.

– آه! لماذا؟ ولأول مرة ظهر على الممرضة الارتباك وقالت:

– إن المرء يحتاج إلى تغيير كما تعرفين يا سيدة "**بيريسفورد**".

– ولكن ألن تقومي بنفس نوع العمل؟

– نعم. والتقطت المعطف الفرو.

– إني أشكرك كثيرا مرة أخرى، وإني مسرورة أيضا لأنه سيكون لديَّ شيء يذكِّرني بالآنسة "**فانشو**"، فقد كانت سيدة عظيمة ولا يجد المرء كثيرا من أمثالها في هذه الأيام.

❖❖❖❖❖

الفصل الرابع

وصل أثاث الخالة "**آده**" في الميعاد المتفق عليه، ووُضع المكتب في مكانه ونال الإعجاب كما وُضعت المنضدة الصغيرة في مكانها، وعُلقت الصورة الزيتية في غرفة نوم "**تويبنس**" حيث كان بوسعها أن تراها كل صباح وهي تتناول الشاي. وبما أن ضميرها كان لا يزال يوبخها قليلا فقد كتبت "**تويبنس**" خطابا تشرح فيه كيف أصبحت الصورة عندها وتعرض فيه إعادتها إذا كانت السيدة "**لنكستر**" ترغب في

ذلك بمجرد أن تخبرها بذلك. وأرسلت هذا الخطاب إلى السيدة "**لنكستر**" طرف السيدة "**جونستون**" في فندق "**كليفلند**". ولم تتلق ردا على هذا الخطاب ولكنه أُعيد بعد أسبوع وقد كُتب عليه "ليست معروفة في هذا العنوان". فقال "**تومي**":

– ربما أمضيتا ليلة أو ليلتين فقط.

– كان يجب أن تتركا عنوانهما التالي.

– هل كتبت على المظروف "أرجو إرساله إلى العنوان التالي"؟

– نعم فعلت.. سأتصل بالفندق تليفونيا وأسألهم فلابد أنهما ذكرتا عنوانا في سجل الفندق.

– لو أني مكانك لتخليت عن الموضوع. لم كل هذه الضجة؟ أظن أن القطة العجوز نسيت كل شيء عن الصورة.

– يُستحسن أن أحاول. واتصلت "**توبنس**" بفندق "**كليفلند**" ولحقت بـ"**تومي**" بعد قليل في غرفة مكتبه.

– إنه لأمر غريب يا "**تومي**"، إنهما لم تنزلا هناك أبدا.. لا توجد السيدة "**جونستون**" ولا السيدة "**لنكستر**" ولم تُحجز غرف باسميْهما، ولا أثر لنزولهما هناك قبل ذلك أبدا.

– أظن أن الآنسة "**باكار**" أخذت اسما خاطئا للفندق.. كتبته بسرعة، وربما فقدته بعد ذلك أو تذكرته خطأ.. إنك تعرفين أن هذا كثيرا ما يحدث.

– ما كان ليخطر لي أن مثل هذا قد يحدث في "**سوني ريدج**" فإن الآنسة "**باكار**" دائما في غاية الكفاءة.

– ربما لم تكونا قد حجزتا مقدما في الفندق ولم تكن هناك أماكن خالية، ولذلك أُضطرتا إلى الذهاب إلى مكان آخر، فأنت تعرفين صعوبة العثور على أماكن خالية في "**لندن**"، هل يجب أن تستمري في إثارة ضجة؟ وانصرفت "**توبنس**" ورجعت بعد قليل وقالت:

– إني أعرف ما سأفعله، سأتصل تليفونيا بالآنسة "**باكار**" وسأحصل على عنوان المحامين.

– أي محامين؟

– الا تتذكر أنها قالت شيئا عن مكتب محامين قاموا بكل الترتيبات لغياب آل "**جونستون**" في الخارج؟ وتمتم "**تومي**" الذي كان مشغولا بكتابة مسودة لخطبة كان سيلقيها في مؤتمر سيحضره قريبا: "إن السياسة الصحيحة لو حدث احتمال طارئ وغير متوقع هو أن.."

– نعم نعم فكرة جيدة.. هائلة.. ممتازة.. افعلي ذلك. وخرجت "**توبنس**" ثم عادت بعد قليل، وأطلّت برأسها وسألته عما يكتب فأجابها:

– إنها الخطبة التي سألقيها في الاجتماع القادم (أ. يو. س) وأرجو أن تدعيني أكتبها في هدوء. وكان قد بدأ يبتسم عندما ازدادت سرعة كتابته عندما فُتح الباب مرة أخرى، وأخبرته "**توبنس**" أنها حصلت على عنوان ورقم تليفون مكتب المحامين ثم أضافت:

– والآن تولَّ أنت الأمر. فلما أحجم قالت "**توبنس**" في إصرار:

– إنهم محامون والاتصال بهم دائما من أعمال الرجال، فإن المحامين يعتقدون أن النساء تافهات ولا يعيروهن أي انتباه.

– إنها وجهة نظر منطقية جدا.

– أرجوك أن تساعدني. اذهب واتصل تليفونيا. وألقى "**تومي**" عليها نظرة ثم انصرف وعاد أخيرا وتكلم بحزم:

– الأمر أصبح الآن منتهيا يا "**توبنس**". وأخبرها "**تومي**" بأنه اتصل بمحامٍ صغير هناك وأن هذا الأخير أخبره بأن أي خطابات أو استعلامات تُرسل إلى بنك "**همرسميث**" ثم أضاف:

– ودعيني أخبرك يا "**توبنس**" بأن الأثر يتوقف هنا فإن البنوك ترسل خطابات وأشياء، ولكنها لا تبوح بالعناوين لك أو لأي شخص يسأل. إن لها نظامها وهي تلتزم به.

– حسنا سأرسل خطابا عن طريق البنك.

– افعلي هذا وبحق السماء اتركيني وشأني أو لن أنتهي من إعداد الخطبة.

– شكرا لك يا حبيبي. لولاك لما عرفت ما كنت سأفعله.

❖❖❖❖❖

سألها "**تومي**" فجأة في مساء الخميس التالي:

– على فكرة هل وصلك رد على الخطاب الذي أرسلته للسيدة "**جونستون**" عن طريق البنك؟ وقالت "**توبنس**" بسخرية:

– جميل منك أن تسأل.. كلا لم أتلق أية خطابات ولا أظن أني سأتلقى خطابا. فسألها:

– ولم لا؟ فقالت "**توبنس**" ببرود:

– إنك في الحقيقة لست مهتما؟

– اسمعي يا "**توبنس**"، إني أعرف أني كنت مشغولا، وكل هذا بسبب المؤتمر، حمدا لله أنه مرة واحدة في العام فقط.

– إنه يبدأ يوم الاثنين أليس كذلك؟ لمدة خمسة أيام.

– أربعة أيام.

– وستذهب طبعا لمنزل سري جدا في الريف في مكان ما وتُلقي خطبا وتقرأ مذكرات وتنصح شبانا الذين سيذهبون لمهمات سرية جدا في "أوروبا" وأماكن أبعد.. لقد نسيت اسم المؤتمر.. ما هو؟

– الاتحاد الدولي للأمن.

– ما أسخفه اسما! وأظن أن المكان مليء بالميكروفونات السرية، وأن كل شخص يعرف أدق أسرار أحاديث الآخرين، وأظن أنك تستمتع بهذا؟

– نعم، فإني أرى عديدا من الأصدقاء القدماء.

– أظن أنهم كبروا كثيرا الآن، هل هناك أي فائدة من هذه الاجتماعات؟

– يا إلهي يا له من سؤال! هل بوسع أحد إقناع نفسه أن بوسعه الإجابة عن هذا بمجرد نعم أو لا؟!

– وهل أي من المجتمعين ذو كفاءة؟

– إن جوابي عن هذا هو "نعم" فإن بعضهم في غاية الكفاءة.

– هل سيكون "**جوشي**" العجوز هناك؟

– نعم.

– كيف حاله الآن؟

– لا يكاد يسمع، نصف أعمى، أعجزه الروماتيزم وستندهشين من الأمور التي لا تفوته.

– كنت أود لو كنت معكم أيضا. وبدا الأسف على "**تومي**":

– أظن أنك ستجدين ما تشغلين نفسك به في غيابي.

– قد أفعل ذلك. ونظر زوجها إليها بالتوجس الذي كانت "**توبنس**" تثيره فيه دائما.

– "**توبنس**" ما الذي تدبرين؟

– لا شيء حتى الآن.. إني أفكر فقط.

– فيم؟

– "**سوني ريدج**"، وسيدة عجوز لطيفة ترتشف الحليب (اللبن)، وتتحدث بطريقة مشوشة عن أطفال ميتين ومدافئ.. لقد أثار هذا فضولي، وفكرت حينئذ أني سأحاول أن أعرف منها أكثر في المرة التالية التي نزور فيها الخالة "**آده**".. ولكن لم تكن هناك مرة تالية؛ لأن الخالة "**آده**" ماتت وعندما ذهبنا ثانية إلى "**سوني ريدج**" كانت السيدة "**لنكستر**" قد اختفت!

– أتعنين أن أقاربها أخذوها؟ إن هذا ليس اختفاء، إنه أمر طبيعي جدا.

– إنه اختفاء فلا يوجد عنوان يُستدل عليه ولا رد على الخطابات، إنه اختفاء مُدبَّر.. إني أزداد تأكدا من ذلك.

– ولكن.. وقاطعته "**توبنس**":

– اسمع يا "**تومي**"، لنفرض أنه حدثت جريمة في وقت ما، وأن الأمر بدأ مستترا وآمنا.. ثم لنفرض أن شخصا ما في العائلة كان قد رأى أو علم بشيء، شخصًا ثرثارا.. شخصًا كثير الحديث مع الناس.. شخصًا تدرك فجأة أنه قد يكون خطرا عليك.. ما الذي تفعله حيال ذلك؟ واقترح "**تومي**" بمرح:

– زرنيخ في الحساء.. ضربة على الرأس.. دفعة من فوق السلم.

– هذه خطوات متطرفة، فإن الموت المفاجئ يلفت النظر.. إن المرء يبحث عن وسيلة أبسط.. وسيجدها مثلا في بيت لطيف محترم للسيدات المسنات وتزور البيت وتسمي نفسك السيدة "**جونستون**" أو السيدة "**روبنسون**" أو تجعل شخصا ثالثا لا

يشك في شيء يقوم بالترتيبات، وتدبر المسائل المالية من خلال مكتب محام محترم، وربما تكون قد لاحظت قبل ذلك أن قريبتك المسنة تتخيل بعض الأمور في بعض الأحيان كما تفعل الكثير من السيدات المسنات، ولن يظن أي شخص أن هذا شيء غريب، لو ثرثرت عن حليب (لبن) مسموم أو أطفال ميتين خلف المدفأة أو عن اختطاف رهيب، ولن يستمع إليها أحد بجدية بل سيظنون أن السيدة العجوز تتخيل من جديد، ولن يعيرها أحد أي اهتمام بالمرة. فقال "**تومي**" :

– ماعدا السيدة "**توماس بيريسفورد**" .

– حسنا، نعم.. لقد كنت أنا يقظة متنبهة .

– ولكن لماذا؟

– لا أعرف تماما، فمثلما يقول "**شكسبير**" : "عندما أشعر بوخز في إبهامي أشعر بالشر قريبا مني" .. لقد انتابني فجأة شعور بالخوف وكنت دائما أعتقد أن "**سوني ريدج**" مكان عادي سعيد.. وفجأة بدأت أتساءل.. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أعبر بها عن الموضوع. كنت أريد أن أعرف عنه المزيد والآن اختفت السيدة "**لنكستر**" المسكينة.. لقد أخفاها شخص ما.

– ولكن لم يفعلون ذلك؟

– أعتقد لأنها كانت تزداد سوءا –من وجهة نظرهم– ربما بدأت تتذكر أكثر أو ربما تعرفت على شخص ما، أو تعرَّف عليها شخص ما، أو أخبرها بشيء أوحى لها بأفكار جديدة عن شيء آخر حدث في يوم ما.. على أي حال لقد أصبحت خطرة على شخص ما لسبب أو آخر.

– اسمعي يا "**توبنس**" .. إن الموضوع كله مليء بافتراضات.. إنها مجرد فكرة خطرت لك، إنك بذلك تورطين نفسك في أمور ليست من شأنك. فقالت "**توبنس**" :

– ولكن حسب رأيك ليس ثمة ما يمكن أن أتورط فيه.. فلا حاجة بك بالمرة لأن تقلق.

– اتركي "**سوني ريدج**" وشأنه.

– لست أنوي الرجوع إلى "**سوني ريدج**" فإني أعتقد أنهم حدَّثوني بكل ما يعرفون

والسيـدة العـجـوز كـانت في أمان طالما كـانت هناك على مـا أعـتـقـد . . إني أريد أن أكتشف أين هي الآن –أريد أن أصل إليـهـا حيـثـمـا كـانت قبل فوات الأوان –قبل أن يحدث لها شيء.

– وما الذي تظنين أنه قد يحدث لها بحق السماء؟

– لا أحب أن أفكر في ذلك ولكنني سأتتبع الأثر وسأكون "**توبنس بيريسفورد**" المخبر الخاص. هل تتذكر عندما كنا "**بلنت**" المخبرين اللامعين؟

– لقد كنت أنا "**بلنت**" وأنت كنت الآنسة "**روبنسون**" سكرتيرتي الخاصة.

– ليس طوال الوقت، وعلى أي حـال هذا مـا سـأفـعـله، وبينمـا تلعب أنت دور الجاسـوس الدولي في القـصـر الريفـي السـري سـأكـون أنا مـشـغـولة بـ «أنقـذوا السـيـدة "**لنكستر**"».

– ستجدينها على الأرجح على ما يرام.

– آمل ذلك ولن يكون هناك من هو أسعد مني.

– وكيف ستشرعين في ذلك؟

– يجب عليَّ أن أفكر أولا كما قلت لك. . . ربما إعلان! كلا هذه ستكون غلطة.

– على أي حال احترسي. ولم تتنازل "**توبنس**" عن الإجابة.

❖❖❖❖❖

ضم "**ألبرت**" الستار ووضع صينية الشاي على المنضدة التي بين السريرين، ثـم أعلن أنه يوم جـمـيل وانـصـرف. "**ألبـرت**" هو الخـادم الوحـيـد لآل "**بيـريسفـورد**" لسنوات عديدة منذ أن اشترك معـهـما –وهو ما يزال عامل مصعد أحمر الشعر– في نشاطهـما المضـاد للجريمة، وتثاءبت "**توبنس**" وانتصبت في السرير ودعكت عـينيـهـا، وصبت لنفسها فنجانا من الشاي ووضعت فيه قطعة ليمون ثم قالت:

– إنه يبدو يوما جميلا. . وتقلب "**تومي**" وتأوه وقالت له "**توبنس**":

– استيقظ وتذكر أنك ستسافر.

– يا إلهي. . أهذا صحيح؟ وانتصب هـو الآخر في السرير وسكب لنفسه فـنجانا من الشاي، ونظر بتقدير للصورة الزيتية المعلقة فوق الشماعة وقال:

– يجب أن أعترف يا "**توبنس**" أن صورتك تبدو جميلة.

– الفضل في ذلك يرجع للطريقة التي تدخل بها الشمس جانبا من النافذة وتنيرها.

– منظر هادئ.

– لو كان بوسعي فقط أن أتذكر أين رأيت هذا المنزل من قبل.

– لا أرى أهمية لذلك.. ستتذكرين في وقت ما.

– لا جدوى من ذلك، فإني أريد أن أتذكر الآن.

– لماذا؟

– ألا تدرك؟ إنه الدليل الوحيد الذي لديًّ، فإنها كانت صورة للسيدة "**لنكستر**".

– ولكن لا توجد رابطة بين الأمرين بأي حال.. أعني أن الصورة كانت حقيقة ملك السيدة "**لنكستر**" في وقت ما، ولكن قد تكون مجرد صورة اشترتها من معرض أو اشتراها أحد أفراد أسرتها، وقد تكون صورة أُهديت إليها وأخذتها معها إلى "**سوني ريدج**" لأنها أُعجبت بها.. ولا يوجد سبب لأن تكون هناك أية صلة شخصية بينها وبين الصورة، ولو كان الأمر كذلك لما أهدتها للخالة "**آده**".

– إنه الدليل الوحيد الذي لديًّ.

– إنه منزل هادئ لطيف.

– ومع كُلٍّ أعتقد أنه منزل خالٍ.

– ماذا تعنيين بـ(خالٍ)؟

– لا أعتقد أن هناك من يسكنه، ولا أعتقد أنه يوجد من سيخرج من هذا المنزل ويعبر الكوبري ويحل القارب ويجدف به. وحدق "**تومي**" إليها وقال:

– بحق السماء يا "**توبنس**" ماذا بك؟

– هكذا خطر لي في أول مرة رأيت فيها المنزل.. لقد فكرت.. كم هو منزل لطيف للعيش فيه، ولكن لا أحد يقيم فيه.. أنا متأكدة من ذلك.. وهذا يوضح لك أني سبق أن رأيته من قبل. انتظر لحظة.. انتظر لحظة.. بدأت أتذكر.. بدأت أتذكر. وحدق "**تومي**" إليها، وقالت "**توبنس**" وهي تلهث:

– من نافذة.. من نافذة سيارة؟ كلا كلا لن تكون الزاوية الصحيحة.. بجوار القناة.. وقنطرة مقوسة صغيرة وجدران المنزل الحمراء وشجرتي الحور.. أكثر من

شجرتين.. كانت هناك أشجار كثيرة آه لو كان بوسعي...

– كُفّي عن هذا يا "**توبنس**".

– سأتذكر. ونظر "**تومي**" في ساعته وقال:

– يا إلهي يجب أن أسرع... أنت وصورتك التي سبق أن رأيتها! وقفز من السرير وهرع إلى الحمام.. واسترخت "**توبنس**" على وسادتها وأقفلت عينيها وهي تحاول أن تتذكر. وكان "**تومي**" يُصب الفنجان الثاني من القهوة في غرفة الطعام عندما ظهرت "**توبنس**" وقد احمر وجهها انتصارا.

– لقد وجدتها.. إنني أعرف أين رأيت هذا المنزل.. كان هذا من خلال نافذة قطار.

– أين؟ متى؟

– لا أعرف فيجب أن أذكر.. إنني أتذكر أني حدّثتُ نفسي.. سآتي يوما وأشاهد هذا المنزل.. وحاولت أن أرى اسم المحطة التالية.. وكان الاسم غير واضح والحشائش تملأ الرصيف ولا توجد لافتة أو أي شيء.

– يا للجحيم أين حقيبتي يا "**ألبرت**"؟ وبدأ بحث محموم، وعاد "**تومي**" لكي يودع "**توبنس**" سريعا وكانت هي جالسة تنظر بتأمل لبيضة محمرة.

– إلى اللقاء، وبالله يا "**توبنس**" لا تدسي أنفك فيما لا يعنيك. فقالت:

– أعتقد أن الذي سأفعله هو أني سأقوم ببعض الرحلات بالقطار. وبدا الارتياح على "**تومي**" وقال مشجعا:

– نعم.. جربي هذا.. اشتري تذكرة موسمية، هناك طريقة تستطيعين بها أن تسافري مئات الكيلومترات في "**إنجلترا**" مقابل مبلغ ثابت معقول جدا وهذا سيوافقك تماما يا"**توبنس**".. سافري بكل القاطرات التي تخطر ببالك فهذا سيشغلك حتى أعود للبيت.

– سلامي لـ"**جوشي**".

– سأفعل ذلك. ونظر لزوجته بقلق:

– كنت أود لو أنك أتيت معي.. لا تفعلي شيئا سخيفا، أرجوك.

– بالطبع لا.. كن مطمئنا.

❖❖❖❖❖

الفصل الخامس

تنهدت "**توبنس**" وقالت:

– يا إلهي.. يا إلهي.. ماذا سأفعل بحق السماء..؟ ولكنها في الواقع كانت قد بدأت تعمل، فقد أتت بجداول لمواعيد القطارات ومضت تفحصها بإمعان وهي تحاول أن تتذكر رحلات القطار التي قامت بها في خلال الثلاث السنوات الماضية.. وبينما كانت منهكة في تدوين بعض التفاصيل عن الخطوط والمواعيد المختلفة للقطارات دخل "**ألبرت**" ليسألها عما تريد أن تتناول على العشاء، وما الذي تريد طلبه من الجزار والبقال، فقالت له:

– أعتقد أني سأسافر في الأيام التالية فلا حاجة بك لأن تشتري شيئا، فإني سأقوم بعدة رحلات بالقطار.

– هل تتناولين بعض الساندويتشات؟

– لا مانع.. أحضر سندويتشاً من لحم أو شيء آخر.

– أتريدين جبنة وبيض؟ وهناك علبة من الباتيه، إنها هنا منذ زمن وقد حان الأوان لأكلها. وكان هذا الاقتراح يبدو مقبضا ولكن "**توبنس**" وافقت.

– هل تريدين إرسال الخطابات إلى عنوان معين؟

– لا أعرف حتى الآن أين سأذهب. وكان الشيء المريح في "**ألبرت**" هو أنه دائما يتقبل كل شيء ولا حاجة لشرح أي شيء له. فانصرف على الفور وعادت "**توبنس**" لمشغوليتها. لقد بدأت تتذكر.. أنها كانت جالسة في قطار وكانت ترتدي قبعة وحذاء حفلات ضيقًا خلعته.. وحاولت أن تتذكر المناسبة.. وبينما هي عابسة في محاولة لعصر ذهنها عاد "**ألبرت**".. وأنَّى لها أن تعرف في هذه اللحظة أن "**ألبرت**" وهو واقف هناك يمثل دعوة استجيبت:

– حسنا، ما الأمر الآن يا "**ألبرت**"؟

– لو كنت ستتغيبين طوال اليوم غدا..

– واليوم التالي أيضا على الأرجح.

– فهل يمكن أن آخذ إجازة غدا؟

– نعم، بالطبع.
– "**إليزابيث**" هي السبب.. فقد ظهر عليها طفح و"**ميلي**" تظن أنها حصبة.
– يا للأسف..
كانت "**ميلي**" زوجة "**ألبرت**" و"**إليزابيث**" أصغر أولاده. أردفت "**توبنس**":
– وهكذا تريدك "**ميلي**" بالطبع في المنزل. وكان "**ألبرت**" يعيش في بيت صغير نظيف في شارع قريب..
– ليس بالضبط، فإنها تحب أن أكون بعيدا عندما تكون مشغولة، فهي لا تريد أن أقلب النظام في المنزل، ولكن الأمر يتعلق بالأطفال الآخرين فبوسعي أن أمضي بهم إلى مكان ما بعيدا عنها.
– بالطبع.. أظن أنكم جميعا معزولون.
– آه! من الأفضل لهم جميعا أن يصابوا بها وننتهي من الأمر.. لقد سبق أن أُصيب بها "**شارلي**" و"**جين**".. على أي حال أليس لديك مانع؟ وأكدت له "**توبنس**" أنه ليس لديها مانع.. كان هناك شيء ما يتحرك في عقلها الباطن.. حصبة.. نعم حصبة.. شيء يتعلق بالحصبة، ولكن أي صلة بين منزل بجوار قناة والحصبة.. وفكرت:
– بالطبع! "**انتيا**" هي ربيبة "**توبنس**".. وابنتها "**جين**" في المدرسة.. أول فصل دراسي لها.. وحفل الجوائز.. واتصلت "**انتيا**" تليفونيا، إن طفليها الصغيرين مصابان بالحصبة، وليس لديها من يساعدها في المنزل، و"**جين**" ستُصاب بخيبة أمل كبيرة لو لم يأت أحد.. هل بوسع "**توبنس**"؟ وقد أجابت "**توبنس**" بالإيجاب إذا لم يكن لديها شيء معين تفعله، وقالت إنها ستذهب إلى المدرسة وتدعو "**جين**" للغداء خارج المدرسة ثم تعود معها لتحضر المهرجان الرياضي وباقي الحفل.. وكان هناك قطار خاص لحفل المدرسة.. وتذكرت كل شيء بوضوح حتى لون فستانها الصيفي، وشاهدت المنزل في رحلة العودة. لقد كانت تغفو قليلا في رحلة العودة، ثم استيقظت لترى أن القطار يمر بجوار قناة.. وكانت منطقة كثيرة الشجر وتظهر بين حين وآخر القنطرة، وفي بعض الأحيان طريق زراعي صغير.. مزرعة عن بعد.. وبدأ القطار يُبطئ بدون سبب ظاهر إلا أن تكون هناك إشارة حمراء ثم توقف بجانب قنطرة صغيرة مقوسة ويبدو أن

القناة على الأرجح غير مستعملة، وعلى الجانب الآخر من القناة بقرب الماء كان المنزل.. فكرت "**توبنس**" في الحال أنه من أجمل المنازل التي رأتها.. منزل هادئ تقع عليه إشعاعة الشمس الذهبية بعد الظهر. ولم يكن هناك أي إنسان ولا كلاب أو ماشية، ومع ذلك فإن الشيش الأخضر لم يكن محكما ولابد أن هناك من يسكن هذا المنزل، ولكنه في هذه اللحظة كان خاليا. وقد فكرت "**توبنس**" في ذلك الحين: "يجب أن أتقصى أمر هذا المنزل.. يجب أن أعود هنا وأشاهده.. إنه طراز المنزل الذي أود أن أعيش فيه". وبهزة شديدة بدأ القطار يتحرك ببطء للأمام وفكرت:

- سأنظر إلى اسم المحطة القادمة حتى أعرف أين المنزل. ولكن لم تكن هناك محطة تالية مناسبة فقد كان هذا هو الوقت الذي أُغلقت فيه محطات فرعية كثيرة مر القطار بعدد منها.. وبعد ذلك نسيت "**توبنس**" الموضوع حتى أيقظت الصورة المعلقة على الحائط ذاكرتها المحجبة.. والآن شكرا لكلمة واحدة نطقها "**ألبرت**" بدون أن يدري أنهت البحث.. أو بالأصح بدأ البحث. وراجعت "**توبنس**" على الخريطة الطريق الذي سلكته بالقطار في يوم ذهابها لمدرسة "**جين**"، وكانت تعرف الآن بالتقريب أن المساحة التي يجب عليها أن تبحث فيها تقع بين "**ميدشيستر**" و"**مركيت باسنج**" وهي مساحة كبيرة، وقررت أن تستقل السيارة غدا في وقت مبكر، وصعدت إلى غرفتها وتأملت الصورة التي فوق الشماعة.. نعم لم يكن هناك أي خطإ.. هذا هو المنزل الذي رأته من القطار منذ ثلاثة أعوام.. المنزل الذي وعدت أن تبحث عنه في يوم ما.. لقد جاء هذا اليوم.. وهو الغد.

الفصل السادس

فحصت "**توبنس**" الصورة جيدا قبل أن تُبارح المنزل في صباح اليوم التالي، لا لكي تتذكر المنزل ولكن لتتذكر مكانه على الطبيعة فإنها ستراه من الزاوية الأخرى، زاوية الطريق، وكانت اللوحة ممضاه ولكن كل ما استطاعت "**توبنس**" أن تميزه هو حرف "ب". وأخذت "**توبنس**" معها دليلا للقطارات والخريطة الملحقة به، وكان قد استقر رأيها على البحث في مثلث: "**ميدشيستر**"، "**ويست لي**"، "**مركيت باسنج**". كما

أخذت معها حقيبة بها ملابس ليلة واحدة. وبعد أن توقفت في "**ميدشيستر**" لتناول وجبة خفيفة وقهوة مضت في طريق ثانوي محاذ لشريط السكة الحديدية يؤدي إلى منطقة مشجرة مليئة بالينابيع، ومضى يوم طويل و"**توبنس**" تبحث بهمة وتضل الطريق بين حين وآخر، وأخيرا بعد أن كادت تيأس عثرت فجأة على المنزل واقتربت منه "**توبنس**" بهدوء فرأت أنه مُحاط بحائط عال، فمضت على مهل حتى وصلت سريعا إلى بوابة حديدية، وركنت السيارة بجوار الطريق وذهبت لتلقي نظرة من خلالها. وأطلَّت على حديقة، لم يعد المكان مزرعة الآن ويبدو أنه يطل على الحقول من الناحية الأخرى، وكانت الحديقة مزروعة ولو أنها لم تكن مرتبة جيدا، ولكن كان يبدو أن شخصا ما كان يحاول أن ينظِّمها. ورأت "**توبنس**" رجلا ضخما كبير السن يعزق في أقصى الحديقة، وكان المنزل من هذه الناحية لا يبدو جميلا، وترددت "**توبنس**" وفكرت أن تغادر المكان، وفُتح باب المنزل وخرجت منه امرأة انحنت ووضعت زجاجة حليب (لبن) ثم انتصبت وألقت نظرة على البوابة ورأت "**توبنس**"، وترددت لحظة ثم بدا أنها اتخذت قرارا. تقدَّمت عبر الممر نحو البوابة وقالت "**توبنس**" لنفسها: "إنها.. إنها مثل ساحرة ودود". وكانت المرأة في حوالي الخمسين، ولها شعر طويل غير منسق يعبث به الريح، ولكن كانت تبدو عليها الطيبة. وقالت المرأة بتردد:

– هل كنت تبحثين عن شيء؟

– إني آسفة.. لابد أنه خطر لك أنه سوء سلوك من جانبي أن أنظر إلى حديقتك بهذه الطريقة، ولكني كنت أتساءل عن هذا المنزل.

– هل تحبين أن تدخلي وتلقي نظرة على الحديقة؟

– حسنا.. شكرا لك ولكني لا أريد إزعاجك.

– ليس هناك أي إزعاج فليس لدي ما أفعله.. أمسية جميلة أليس كذلك؟

– نعم إنها لكذلك.. إني كنت أفكر وأنا أهبط التل من الناحية الأخرى للقنطرة كم هذا المنزل جميل وجذاب!

– هذه هي أجمل واجهة له، والفنانون يأتون في بعض الأحيان ويرسمونه أو كانوا يفعلون ذلك فيما مضى. فقالت "**توبنس**":

– نعم، هذا أمر مُنتظر وأعتقد أني رأيت لوحة له في معرض ما.. صورة لمنزل مثل هذا، وقد تكون لهذا المنزل.

– آه، إن هذا محتمل. ثم دعت "**توبنس**" للدخول، ودخلت "**توبنس**" وأطرت على الحديقة وعرضت عليها مضيفتها دخول المنزل ومشاهدته قائلة:

– هل تودين دخول المنزل؟ بوسعي أن أرى أنك مهتمة به.. إنه منزل قديم من الطراز الجيورجي كما يُقال، ولكن أُضيفت إليه مبان أخرى وبالطبع لدينا فقط نصفه.

– آه فهمت. إنه مقسوم نصفين، أليس كذلك؟

– هذا هو في الواقع ظهر المنزل.. والجزء الأمامي منه من الناحية الأخرى وهو الذي رأيته من القنطرة.. إنها طريقة عجيبة لقسمة منزل، وكنت أظن أنه من الأسهل قسمته من اليمين إلى الشمال وليس من الخلف والأمام.. وهذا الجزء هو في الواقع الجزء الخلفي.

– وهل تقيمون هنا منذ زمن طويل؟

– منذ ثلاث سنوات فقد كنا نريد مكانا صغيرا ورخيصا في الريف –بعد أن أحيل زوجي إلى المعاش– نستطيع أن نعيش فيه في هدوء، وكان هذا المنزل رخيصا بالطبع؛ لأنه في مكان معزول فنحن لسنا بقرب قرية أو أي شيء.

– لقد رأيت برج كنيسة عن بعد.

– آه، إن هذه هي كنيسة "**سوتون شنسلور**" على بعد أربعة كيلومترات من هنا ونحن نتبعها بالطبع، ولكن لا توجد أي منازل حتى نصل إلى القرية وهي قرية صغيرة جدا. هل تتفضلين بتناول فنجان من الشاي؟ لقد وضعت الإبريق على النار منذ دقيقتين. ثم رفعت يديها إلى فمها وهتفت:

– "**آموس**".. "**آموس**". واستدار الرجل الضخم وهو بعيد وصاحت:

– الشاي بعد عشر دقائق. وأشار بيده بأنه سمع، واستدارت وفتحت الباب، وأشارت إلى "**توبنس**" بالدخول وهي تقول في صوت ودود:

– إن اسمي "**أليس بيري**".

– وأنا السيدة "**بيريسفورد**".

– ادخلي يا سيدة "**بيريسفورد**" وألقي نظرة. ترددت "**توبنس**" قليلا ثم دخلت

وشعرت بخيبة أمل، فالمنزل كان مكوّنا من ممرات صغيرة مظلمة وغرف صغيرة مقسّمة بالعرض وفكرت في نفسها: "إن هذه طريقة غريبة فعلا لقسمة منزل". وبعد أن أتت السيدة "**بيري**" بصينية الشاي إلى غرفة الجلوس قالت:

– أظن أنك أُصبتِ بخيبة أمل بعد أن دخلت المنزل. وكانت هذه ملاحظة ذكية قريبة جدا من الحقيقة، وقالت "**توبنس**":

– كلا.

– لو كنت مكانك لشعرت بهذا لأن جزئيه لا يتشابهان! ولكنه منزل مريح للإقامة وليس فيه غرف كثيرة والاضاءة ضئيلة، ولكن هذا أثّر كثيرا في خفض الثمن. وسألتها "**توبنس**" عمن قسّم المنزل بهذه الطريقة ومتى تم ذلك، فأخبرتها السيدة "**بيري**" أن هذا تم منذ وقت بعيد، وربما كان السبب هو أن المنزل كان كبيرا على حالته الأولى.

– ومن الذي يقيم في الجزء الآخر؟ هل هم أشخاص يجيئون فقط في نهاية الأسبوع؟ فأجابت السيدة "**بيري**":

– لا يعيش هناك أحد الآن.. تناولي بسكويتًا آخر يا عزيزتي.

– شكرا لك.

– لم يأت أحد هنا في العامين الماضيين، ولا أعرف من المالك الآن.

– وعندما جئتما هنا لأول مرة؟

– كانت هناك سيدة شابة من عادتها أن تأتي هنا، ويقال إنها كانت ممثلة– على الأقل هذا ما سمعناه– ولكننا لم نرها أبدا في الحقيقة، وإنما لمحتها فقط أحيانا، فإنها كانت تأتي في وقت متأخر من ليلة السبت، على ما أظن بعد المسرح، وترحل في مساء الأحد. وقالت "**توبنس**" مشجعة:

– امرأة غامضة.

– أتعرفين أن هذا هو نفس رأيي، وكان من عادتي أن أتخيل روايات عنها، وفي بعض الأحيان كنت أفكر أنها مثل "**جريتا جاربو**". ومضت السيدة "**بيري**" تروي كيف أن الممثلة كانت عصبية وخجولة، وكانت ترفض مقابلة الصحفيين الذين يأتون لمقابلتها، وأن السيدة "**بيري**" في بعض الأحيان كانت تتخيل أمورا مخيفة عنها، فكانت تتخيل أنها ربما ليست ممثلة، وإنما هاربة من العدالة تخشى أن يتعرف عليها

الناس، وأضافت وهي تضحك:

– من المثير أن يتخيل المرء أشياء خصوصا عندما لا يرى.. أناسا كثيرين.

– ألم يكن يأتي أبدا أحد لزيارتها؟

– أنا لست متأكدة من ذلك، وبالطبع الجدران التي وضعوها لقسمة المنزل ليست سميكة، وأحيانا أسمع أصواتا وأعتقد أنها كانت تصحب معها شخصا ما بين حين وآخر في نهاية الأسبوع. وأومأت برأسها:

– وربما هذا هو السبب في رغبتهما في منزل منعزل مثل هذا. فتساءلت "**توبنس**":

– رجل متزوج؟

– نعم لابد أنه كان متزوجا، أليس كذلك؟

– ربما كان زوجها هو الذي يجيء معها وأنه اختار هذا المكان في الريف؛ لأنه كان يريد أن يقتلها، ولعله دفنها في الحديقة. فهتفت السيدة "**بيري**":

– ياه! كم أنت خيالية! هذه الفكرة لم تخطر لي.

– أظن أن شخصا ما يعرف كل شيء عنها.. أعني سماسرة المنازل وأناسًا من هذا القبيل.

– أظن ذلك ولكنني أفضل عدم معرفة شيء.. فإن هذا المنزل له جو معين.. أعني شعورًا يوحي بأنه يمكن أن يحدث فيه أي شيء.

– ألم يكن لديها من يأتي لتنظيف المنزل؟

– من الصعب أن يجد المرء أحدا هنا. وفُتح الباب الخارجي ودخل الرجل الذي كان يعمل في الحديقة، إنه "**آموس بيري**" زوج السيدة "**بيري**"، وهو رجل ضخم قوي ولكنه تبدو عليه بعض البساطة والبله، وبعد أن فرغت "**توبنس**" من تناول الشاي نهضت وشكرت مضيفيها، ونهض السيد "**بيري**" وصمم على أن يريها الحديقة.. وكان من الواضح أنه مغرم بالحديقة ويهتم بها كثيرا. وقال السيد "**بيري**" وهو يريها زهوره:

– ألوان زاهية.. إنني أحب الألوان الزاهية.. يأتي بعض الناس كثيرا لمشاهدة حديقتنا، وأنا سعيد أنك جئت.

– شكرا جزيلا.. إنني أعتقد أن حديقتك ومنزلك لطيفان جدا.

- يجب أن تري الجزء الآخر من المنزل.
- هل هو للبيع أو للإيجار؟ إن زوجتك تقول إنه لا يوجد من يقيم فيه الآن.
- نحن لا نعرف، ولم نر أيَّ أحد ولم توضع أية لافتة، ولا يأتي أحد أبدا لفحصه.
- أعتقد أنه منزل لطيف.
- هل تريدين منزلا؟
- نعم.. نعم، في الواقع إننا نبحث عن منزل صغير في الريف لنقيم فيه، بعد أن يعتزل زوجي العمل وهو ما سيحدث في العام القادم على الأرجح، ولكننا نحب أن نبحث قبل ذلك بوقت كاف.
- إن المكان هنا هادئ، إذا كنتما تحبان الهدوء.
- أظن أن بوسعي أن أسأل السماسرة المحليين.. هل هذه هي الطريقة التي حصلتما بها على المنزل؟
- إننا رأينا إعلانا في الجرائد ثم ذهبنا لسماسرة المنزل.
- أين كان ذلك.. في "**سوتون شنسلور**"؟ هذه قريتكما أليس كذلك؟
- "**سوتون شنسلور**"؟ كلا.. إن السماسرة في "**مركيت باسنج**" واسم المكتب "**روسل وتويمبسون**".. بوسعك الذهاب إليهم وسؤالهم.
- نعم، بوسعي أن أفعل ذلك.. كم تبعد "**مركيت باسنج**" عن هنا؟
- إننا نبعد حوالي ثلاثة كيلومترات عن "**سوتون شنسلور**" والقرية تبعد حوالي أحد عشر كيلومترا عن "**مركيت باسنج**"، وهناك طريق جيد من "**سوتون شنسلور**" ولكن كل الطرق من هنا ليست إلا طرقا ريفية غير ممهدة.
- فهمت.. حسنا إلى اللقاء يا سيد "**بيري**" وشكرا جزيلا لك؛ لأنك أريتني حديقتك.
- انتظري برهة. وانحنى وقطف زهرة كبيرة وأمسك بعروة معطف "**توبنس**" ورشقها فيها ثم قال:
- هاك.. إنها جميلة.. وللحظة شعرت "**توبنس**" بخوف مفاجئ من هذا الرجل الضخم الطيب، وكان ينظر إليها ويبتسم ابتسامة خبيثة وقال مرة أخرى:
- إنها تبدو جميلة عليك.. جميلة. وفكرت "**توبنس**": "إني سعيدة لأني لست

فتاة صغيرة.. فأنا لا أعتقد أني كنت سأحب أن يُوضع لي وردة إذ ذاك". وسلمت عليه وهرعت منصرفة، وكان باب المنزل مفتوحا فدخلت "**توبنس**" لتحيي السيدة "**بيري**" وكانت في المطبخ تغسل أدوات الشاي، وبطريقة آلية سحبت "**توبنس**" منشفة وبدأت تنشف وهي تقول:

– شكرا جزيلا لكما فإنكما كنتما في غاية الكرم معي.. ما هذا؟ سُمِع في هذه اللحظة صوت صراخ عال وصوت خرفشة من خلف جدار الحائط، فقالت السيدة "**بيري**":

– إنه غراب صغير وقع من المدخنة في المنزل الآخر، وهذا يقع لهذه الطيور في ذلك الوقت من العام، وقد وقع واحد من مدخنتنا في الأسبوع الماضي.. فإنها تبني عششها في المداخن.

– ماذا! هل يحدث هذا في المنزل الآخر؟

– نعم، ها هو صوته مرة أخرى. ومرة أخرى سمعنا صياح الطائر الحبيس، وقالت السيدة "**بيري**":

– لا يوجد هناك أحد في المنزل الخالي ليهتم بالأمر. كان يجب أن تُنظف المداخن. وتتابعت أصوات الخرفشة والصياح، وقالت "**توبنس**":

– يا للطائر المسكين.

– إني أعرف، فإنه لن يتمكن من الصعود مرة أخرى.

– أتعني أنه سيموت هناك؟

– نعم، فقد نزل واحد من مدخنتنا كما قلت بل اثنان في الواقع، وكان أحدهما طائرا صغيرا وليس به مكروه وأخرجناه وطار أما الآخر فقد مات. وتتابعت أصوات المحاولات اليائسة للطائر المسكين. قالت "**توبنس**":

– آه، كم أود لو كان بوسعنا أن نصل إليه. ودخل السيد "**بيري**" من الباب وقال وهو ينقل بصره بين المرأتين:

– هل هناك شيء؟

– إنه طائر يا "**آموس**" وهو لابد في مدخنة حجرة الاستقبال في المنزل الآخر.. هل تسمعه؟

– هه.. إنه وقع من عش الغربان. فقالت السيدة "بيري" :

– كم أتمنى لو كان بوسعنا أن ندخل هناك.

– ليس بوسعك أن تفعلي شيئا فإنه سيموت من الخوف إن لم يمتِ من سبب آخر.

– وستصدر منه رائحة كريهة.

– كيف! هل إحدى النوافذ مفتوحة؟

– بوسعنا أن ندخل من الباب.

– أي باب؟

– الباب الذي في الفناء، فإن مفتاحه موجود بين هذه المفاتيح. واتجه إلى الخارج وفتح بابا صغيرا لكوخ صغير به باب آخر يؤدي إلى المنزل الآخر، وأخذ مفتاحا وبعد محاولات فتح الباب، وقال السيد "بيري" :

– لقد دخلت هنا مرة عندما سمعت صوت ماء ينساب إذ نسي أحدهم أن يغلق صنبور الماء كما يجب. ودخلوا فوجدوا أنفسهم في غرفة صغيرة فيها أوان لها زهور وحنفية وحوض، وكان من الواضح أنها كانت غرفة لترتيب الزهور. ودلفوا من هذه الغرفة للمنزل وكان الممر مُغطى بسجادة ويُسمع من باب نصف مفتوح صوت الطائر الحبيس، وفتح "بيري" الباب ودخلت زوجته و"توبنس". وكان الشيش مغلقا ولكن ضلفة منه كانت غير محكمة وكان يتسرب منها الضوء، وكانت هناك سجادة خضراء جميلة ولو أنها باهتة الألوان على الأرض، ورف للكتب كما كانت هناك ستائر ولكن لم يكن هناك أثاث. وتقدمت السيدة "بيري" نحو المدفأة حيث كان هناك طائر يصيح في استغاثة، وانحنت والتقطته وقالت :

– افتح النافذة لو استطعت يا "آموس". وتمكّن "آموس" من فتح النافذة، وأطلقت السيدة "بيري" الطائر منها فهبط على أرض الحديقة وقفز بضع خطوات. وقال "بيري" :

– من الأفضل قتله فإنه مصاب. وقالت زوجته :

– اتركه قليلا فلا يمكن التكهن فإن الطيور تُشفى بسرعة.. إن الخوف هو الذي يجعلها تبدو مشلولة.. وبعد لحظات تمكّن الطائر فعلا من الطيران، وقالت "أليس بيري" :

– آمل فقط ألا يسقط من المدخنة مرة أخرى.. فإن الطيور بلهاء وهي لا تعرف ماذا يفيدها. ثم أضافت:

– يا لها من فوضى. وحدقوا جميعا إلى أرضية المدخنة فقد سقطت من المدخنة كمية من السناج والحجارة، وكان من الواضح أن المدخنة أُهمل ترميمها لمدة طويلة. وقالت السيدة "**بيري**" وهي تنظر حولها:

– يجب أن يأتي أشخاص ويقيموا هناك. ووافقتها "**توبنس**" قائلة:

– يجب أن يعتني شخص ما بالمنزل.. ويجب أن يفحصه مقاول ويرممه أو سينهار المنزل كله قريبا..

– من الراجح أن الماء تسرب من السقف للغرف العلوية.. نعم انظرا إلى السقف هناك.. إن الماء جاء من هنا. فقالت "**توبنس**":

– من المخجل إفساد منزل جميل.. إنها في الواقع غرفة جميلة. ونظرت هي والسيدة "**بيري**" إلى الغرفة بتقدير، وكانت الغرفة التي بُنيت في عام 1790 لها كل الجمال الذي كان يميز هذه الفترة. وقال السيد "**بيري**":

– إنها أصبحت خرابا الآن. وقلبت "**توبنس**" الطوب بقدمها، وقالت السيدة "**بيري**":

– يجب أن يكنس المرء المكان. قال السيد "**بيري**":

– لماذا تشغلين نفسك بمنزل ليس ملكك؟ اتركيه وشأنه يا امرأة فسيكون في مثل هذه الحالة السيئة غدا. وقلبت "**توبنس**" الطوب بحذائها ثم قالت باستياء:

– أوه.. وكان هناك طائران ميتان في المدفأة يبدو أنهما ميتان منذ فترة طويلة. وقال "**بيري**":

– هذا هو العش الذي سقط منذ عدة أسابيع، من المدهش أن الرائحة ليست أشد. وغمغمت "**توبنس**":

– ما هذا؟ وقلبت بقدمها شيئا نصف مدفون ثم انحنت والتقطته. فاعترضت السيدة "**بيري**":

– لا تمسي طائرا ميتًا.

– إنه ليس طائرا.. لابد أن شيئا آخر سقط من المدخنة.. ياللعجب! إنه دمية..

دمية طفل. ونظروا إليها.. كانت فيما مضى دمية طفل، ولكن الآن أصبحت ثيابها بالية وهي في حالة سيئة ورأسها مدلى فوق الكتفين وإحدى عينيها الزجاجيتين مخلوعة.. ووقفت "**توبنس**" وهي ممسكة بها قائلة:

- إني لأتساءل كيف صعدت دمية طفل إلى المدخنة؟ شيء عجيب!

الفصل السابع

اتجهت "**توبنس**" بسيارتها في الطريق الضيق المعوج الذي أكد لها آل "**بيري**" أنه يؤدي إلى قرية "**سوتون شنسلور**"، وكان طريقا خاليا، وبعد قليل شاهدت برج الكنيسة القديمة الجميلة. وتركت "**توبنس**" السيارة خارج السور وفتحت باب الكنيسة ودخلت، ورأت امرأة في منتصف العمر ترتدي معطفا وجونلة "تويد" ترتب الزهور في أوان نحاسية حول المذبح. ومضت "**توبنس**" تتجول في الكنيسة وتنظر إلى اللوحات التذكارية على الجدران فلاحظت عدة لوحات منها تحمل اسم عائلة "**روندر**" من "**البريوري**" ثم رأت لافتة جديدة تسجل موت "**جوليا ستارك**" من "**البريوري**" أيضا مما يدل على أن عائلة "**روندر**" قد اندثرت. وخرجت "**توبنس**" من الكنيسة واتجهت إلى القرية على قدميها.. وكانت القرية مكوّنة من حانوت ومكتب بريد وحوالي اثني عشر كوخا أو بيتًا صغيرًا.. كما كان هناك ستة منازل أقامها مجلس القرية عند حدها المتطرف. ورجعت "**توبنس**" ببطء نحو سيارتها وتوقفت لمشاهدة فناء الكنيسة عن كثب، وأُعجبت بها، وكانت أغلب المقابر فيها قديمة من العهد الفيكتوري، وكان الرخام القديم الذي يعلوها جذابا ومنها ما هو مزين بملائكة وأكاليل. ومضت تتجول وهي تنظر إلى الأسماء المكتوبة فقرأت: "**ماري روندر**" سن 47 عاما، "**أليس روندر**" سن 33عاما، العقيد "**جون روندر**" قتل في "**أفغانستان**" إلخ. وتساءلت ما إذا كان لا يزال يوجد أفراد من هذه الأسرة.. إنهم لم يعودوا يُدفنون هنا فإن آخر من مات منهم دفن في عام 1843. ورأت قسا عجوزا منحنيا فوق صف من الشواهد القديمة بجوار حائط خلف الكنيسة.. وانتصب واستدار عندما اقتربت منه "**توبنس**" وحياها بلطف، وقالت له:

– كنت أتفرج على الكنيسة. فقال القس:

– لقد أفسدتها التجديدات الفيكتورية. وكانت له ابتسامة لطيفة وصوت لطيف، وكان يبدو في حوالي السبعين، ولكن "توبنس" قدرت أنه أصغر من ذلك قليلا وكان بالتأكيد مُصاب بالروماتيزم. وقال بحزن:

– كان هناك رخاء كثير في العهد الفيكتوري، كما كان هناك أصحاب مصانع أكثر من اللازم وكانوا متدينين، ولكن للأسف لم تكن لديهم أية حاسة فنية ولا أي ذوق.. هل رأيت النافذة الشرقية؟ وارتعش..

– نعم، إنها شنيعة.

– أوافقك تماما. وسألته:

– هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

– منذ عشرة أعوام يا عزيزتي. إنها إبراشية لطيفة، والناس فيها ظرفاء، وأنا سعيد جدا هنا، ثم أضاف بحزن:

– إنهم لا يحبون مواعظي كثيرا، وأنا أفعل أقصى ما أستطيع، ولكنني لا أستطيع بالطبع أن أدَّعي أني عصري حقيقةً.. تفضلي بالجلوس.. وأشار بترحيب إلى شاهد قريب، وجلست "توبنس" بامتنان وجلس القس على شاهد آخر قريب وقال معتذرا:

– ليس في وسعي الوقوف طويلا. ثم أضاف:

– هل بوسعي أن أفعل أي شيء من أجلك، أم أنت مارة فقط بالقرية؟ فاجابت:

– إني في الحقيقة مارة فقط، وأردت أن ألقي نظرة على الكنيسة، وقد ضللت الطريق وأنا أقود السيارة في الطرق الضيقة.

– نعم نعم.. من الصعب جدا ألا يضل الإنسان في هذه المنطقة، فإن الكثير من اللافتات قد كُسر، والبلدية لا تصلحها كما كان يجب. ثم مضى يتحدث عن ضجيج الطرق العامة واختتم قائلا:

– لن يمكنك أن تخمني ما الذي كنت أفعله هنا. ثم أخبر "توبنس" بأنه كان يبحث عن قبر طفلة.. وتململت "توبنس" على الشاهد ثم سألت:

– قبر طفلة؟

– نعم، لقد كاتبني شخص يدعى العقيد "وترز" وسأل إذا كان هناك أي احتمال

أن تكون طفلة قد دُفنت هنا.. وبحثت في دفاتر الإبراشية بالطبع، ولكن لم يكن هناك أي سجل لهذا الاسم.. ومع كل جئت هنا أبحث بين القبور إذ خطر لي أن من المحتمل أن يكون كاتب السجل قد أخطأ فلم يُدوِّن الاسم. وسألته "**توبنس**" :

– ما الاسم الأول؟

– إنه لا يعرف.. ربما يكون "**جوليا**" على اسم أمها.

– وكم كان عمر الطفلة؟

– إنه لا يعرف أيضا.. إن الأمر كله مبهم، وأعتقد أن الرجل أخطأ في اسم القرية، فإني لا أتذكر أن أحدًا يسمى "**وترز**" عاش هنا فلم أسمع بهذا الاسم.

– ماذا عن آل "**روندر**" يبدو أن اسمهم يملأ الكنيسة والشواهد.

– آه، إن هذه الأسرة اندثرت الآن، وكان لديهم دير "**بريوري**" من القرن الرابع عشر وقد دمرها حريق منذ حوالي مائة عام؛ ولذلك أظن أن أي فرد من عائلة "**روندر**" –لو تبقى منها– قد رحل ولم يرجع، وقد أُنشئ مكانها منزل جديد لفيكتوري غني يدعى "**ستارك**" وهو منزل قبيح، ولكن يُقال إنه مريح جدا وفيه حمامات إلخ.. فقالت "**توبنس**" :

– يبدو من الغريب جدا أن يكتب شخص ما ويسألك عن قبر طفلة.. هل هو قريب لها؟

– إنه والد الطفلة، وهذه إحدى مآسي الحرب على ما أظن.. زواج تحطم حينما كان الزوج يحارب في الخارج وهربت الزوجة الشابة مع رجل آخر، وكانت هناك طفلة لم يرها هو أبدا، ولو كانت حية لكانت قد كبرت، فإن هذا حدث منذ نحو عشرين عاما أو أكثر.

– أليس هذا وقتا طويلا ليبدأ البحث عنها بعده؟

– يبدو أنه سمع منذ فترة وجيزة فقط أنه كانت له طفلة، وأنه سمع هذا بالمصادفة المحضة، والأمر كله رواية غريبة.

– وما الذي جعله يعتقد أن الطفلة دُفنت هنا؟ وقال لها القس:

– إنه يبدو أن شخصا ما أخبره أن زوجته عاشت في هذه القرية في خلال الحرب. وسألته إن كان يعرف سيدة اسمها السيدة "**لنكستر**" .. ولكنه نفى ذلك.. ثم سألته

عن اسم المنزل المجاور للقناة ووصفته له، فأخبرها أنه يسمى "**وترسيد**" وأن السيد "**بيري**" ليس ذكيا جدا، ولكنه لا يؤذي.. ثم أخبرها أن المنزل كله كان ملكا لآل "**بردلي**" وأنه بيع عدة مرات وهو خالٍ منذ فترة طويلة، وأن الآنسة "**مرجريف**" الممثلة كانت تستعمله لفترة لعطلة نهاية الأسبوع. وسألته "**توبنس**" بإصرار:

– من مالكه الحالي؟

– ليس لديَّ أية فكرة.. من المحتمل أنه مازال ملكًا للممثلة، فإن الجزء الذي يعيش فيه آل "**بيري**" مؤجر فقط لهما. وقالت "**توبنس**":

– لقد تعرَّفت المنزل بمجرد أن رأيته؛ لأن لديَّ صورة له.

– أحقيقي؟ لابد أنها أحد رسومات "**بوسكو**" أو ربما كان اسمه "**بوسكوبيل**" ليس في وسعي أن أتذكر الآن.. إنه كان رساما مشهورا من "**كورنوال**" على ما أظن وقد مات الآن.. نعم إنه كان كثيرا ما يأتي هنا ويرسم.

– هذه الصورة أُهديت إلى خالتي العجوز –وقد ماتت منذ حوالي شهر– من سيدة تُدعى السيدة "**لنكستر**"، وهذا هو سبب سؤالي عما إذا كنت تعرف الاسم. وهزَّ القس رأسه مرة أخرى..

– "**لنكستر**"؟ "**لنكستر**"، كلا يبدو أني لا أتذكر الاسم.. آه! ها هي التي يجب أن تسأليها... عزيزتنا الآنسة "**بلاي**".. إن الآنسة "**بلاي**" نشيطة جدا وهي تعرف كل شيء في الإبراشية وتدير كل شيء: معهد النساء، الكشافة والرواد..كل شيء.. سليها هي فإنها نشيطة جدا فعلا. وكانت الآنسة "**بلاي**" هي المرأة ذات الرداء التويد التي رأتها "**توبنس**" من قبل في الكنيسة، وكانت تقترب منهما بسرعة وهي لا تزال ممسكة برشاشة مياه صغيرة، وقدمها القس للسيدة "**بيريسفورد**".. وقالت الآنسة "**بلاي**":

– آه نعم، إني رأيتك منذ قليل في الكنيسة، أليس كذلك؟ وكنت أنوي أن أتحدث معك وألفت نظرك إلى بعض الأماكن المهمة، لولا أني كنت في عجلة لأفرغ من عملي. وأطرت "**توبنس**" ذوق الآنسة "**بلاي**" في تنسيق الزهور، وتدرج الحديث بينهما فأخبرتها "**توبنس**" أنها تفكر في الذهاب إلى "**مركيت باسنج**" لتمضي الليلة هناك لأنها تود أن تشاهد المنطقة وتبحث عن منازل صغيرة إذ تنوي هي وزوجها شراء

بيت يعيشان فيه بعد أن يعتزل العمل بعد عام ونصف.. وأضافت أنها تفضل البحث في وقت مبكر لكي تحسن الاختيار.. ثم سألت إن كان يوجد مكان في القرية تستطيع أن تبيت فيه. وأخبرتها الآنسة "**بلاي**" أن هناك بالطبع منزل السيدة "**كوبلي**"، وهي سيدة نظيفة جدا ثم عرضت عليها أن تصاحبها وتحاول مساعدتها في الحصول على غرفة. وقالت الآنسة "**بلاي**":

– هيا بنا.. إلى اللقاء يا قس.. هل مازلت تبحث..؟ إني أعتقد أنه طلب غير معقول بالمرة. وسلمت "**توبنس**" على القس وقالت إنه سيسعدها أن تساعده لو استطاعت وأردفت "**توبنس**":

– بوسعي أن أمضي بسهولة ساعة أو ساعتين أفحص الشواهد فإن نظري جيد جدا بالنسبة لسني.. هل تبحث فقط على اسم "**وترز**"؟ فأجاب القس:

– كلا.. إني أعتقد أن المهم هو السن.. إنها طفلة في السابعة. العقيد يعتقد أن من المحتمل أن تكون زوجته قد غيرت اسمها، وأطلقت على الطفلة اسمًا جديدًا، ولما كان لا يعرفه فهذا مما يصعب الأمر. وانصرفت الآنسة "**بلاي**" و"**توبنس**" ولم تتوقف الآنسة "**بلاي**" عن الحديث طوال الطريق. ووصلتا إلى كوخ نظيف، واستقبلتهما السيدة "**كوبلي**"، وهي سيدة ممتلئة تبدو نشيطة، وتمنعت قليلا في أول الأمر وهي تقول إنها تقبل نزلاء في الصيف فقط، ثم قبلت بعد أن راقت لها "**توبنس**"، وبعد أن أنذرتها أنها قد لا تجد كل وسائل الراحة. واضطرت الآنسة "**بلاي**" عند هذا للانصراف، يخامرها بعض الأسف، إذ لم تكن قد تمكنت من اعتصار كل المعلومات التي كانت تريد أن تعرفها من "**توبنس**" عن المكان الذي جاءت منه وعمل زوجها وكم عمرها، وإن كان لديها أطفال وأمور أخرى.. ولكن يبدو أنه كان لديها اجتماع في منزلها تتولى رئاسته، وكانت خائفة أن يستولي شخص آخر على هذه المكانة المرموقة، وتم الاتفاق بين "**توبنس**" والسيدة "**كوبلي**"، ومضت السيدة "**كوبلي**" بنزيلتها إلى غرفتها وهي صغيرة ظريفة مرحة فاستلقت على السرير نصف ساعة بعد يوم متعب، وكان أمل "**توبنس**" في السيدة "**كوبلي**" كبير فقد كانت تشعر أنه بمجرد أن تستريح سيكون بوسعها أن توجه ثرثرة السيدة "**كوبلي**" إلى المواضيع المثمرة، وستعرف على وجه الخصوص كل شيء عن السكان السابقين للمنزل الواقع

بجوار الجسر. وتناولت "**توبنس**" العشاء وأطرته، ثم بدأت تلقي أسئلة وتوجه السيدة "**كوبلي**" بدون أن تشعر هذه الأخيرة، ولكن خاب أملها في أول موضوع طرقته؛ لأن السيدة "**كوبلي**" لم تكن قد سمعت أبدا بالسيدة "**لنكستر**"، ولما أخبرتها "**توبنس**" بالصورة الزيتية التي لديها لـ"**وترسيد**" قالت لها السيدة "**كوبلي**" في الحال إنها بريشة "**بوسقوان**" الرسام الراحل المعروف.. وكان رأي السيدة "**كوبلي**" في آل"**بيري**" أنهما عجيبان وأن "**آموس بيري**" شبه أبله، ثم روت لها حكايات كثيرة عن تاريخ سكان "**وترسيد**"، وكيف أنه بيع عدة مرات واشترته سيدة لطيفة أرملة ضابط تُدعى السيدة "**شارنجتون**" ولكنها أغلقته وتركته عندما غرَّر شاب بابنتها وهجرها، وكانت الابنة تتعلم الباليه في "**لندن**" وتعرفت عليه هناك.. ويقال إن الفتاة قتلت الطفل الذي ولدته ثم انتحرت وإن والدتها جنت من شدة الحزن واضطر أقاربها إلى إيداعها مستشفى للأمراض العقلية. وشعرت "**توبنس**" بدوار: "هل يمكن أن تكون السيدة "**شارنجتون**" هي السيدة "**لنكستر**"؟ غيرت اسمها وجنت قليلا وقد تسلطت عليها فكرة مصير ابنتها". ومضى صوت السيدة "**كوبلي**" يقول:

– إني لم أصدق كلمة من هذه الرواية، فإن الفتاة "**بدوك**" الخادمة كثيرة الكذب ولم نكن في هذا الوقت نستمع كثيرا للقيل والقال؛ لأنه كان لدينا أشياء أخرى تقلقنا، وكنا جميعا في هذه المنطقة في غاية الخوف من الأمور التي كانت تجري وهي أمور حقيقية. وسألت "**توبنس**" وهي في دهشة من الأمور التي يبدو أنها تحدث وتتمركز حول القرية الهادئة:

– وما الذي كان يحدث؟

– أعتقد أنك قرأت عن ذلك في جرائد هذه الفترة.. لقد حدث هذا منذ نحو عشرين عاما ولابد أنك قرأت عنه –جرائم قتل أطفال.. في أول الأمر كانت طفلة صغيرة في التاسعة من عمرها لم ترجع من المدرسة في أحد الأيام، وخرج كل سكان المنطقة للبحث عنها، ووُجدت مخنوقة في "**دنجلي كوبس**" ومازلت أقشعر وأنا أفكر في الأمر.. حسنا كانت هذه هي أول جريمة، ثم حدثت الجريمة الثانية بعد ثلاثة أسابيع في "**مركيت باسنج**" وهي المنطقة نفسها ويمكن لرجل لديه سيارة أن يرتكبها بسهولة .. ثم حدثت جرائم أخرى في فترات تتفاوت بين شهر وشهرين، وبعد ذلك

حدثت جريمة على بعد ثلاثة كيلومترات من القرية.

- ألم يعرف البوليس.. ألم يعرف أي أحد من ارتكبها؟ فأجابت السيدة "**كوبلي**":

- لقد بذلوا غاية جهدهم واعتقلوا رجلا من الناحية الأخرى لـ"**مركيت باسنج**" وقالوا إنه يعاونهم.. وأنت تعرفين معنى هذا.. لقد ظنوا أنهم عثروا على القاتل، ثم اعتقلوا أشخاصا آخرين، ولكنهم اضطروا إلى إطلاق سراحهم جميعا بعد مضي أربع وعشرين ساعة؛ لأنهم وجدوا أنه ما كان بوسع أي منهم أن يرتكب الجرائم. وقاطعها زوجها السيد "**كوبلي**":

- أنت لا تعرفين يا "**ليز**".. قد يكون البوليس قد عرف جيدا من الجاني، وفي رأيي أنهم عرفوا فعلا وكما سمعت فإن هذا يحدث كثيراً فالبوليس يعرف من الجاني، ولكنه لا يستطيع إثبات الجريمة عليه. ووافقته السيدة "**كوبلي**" وقالت:

- إن الزوجات والأمهات والحبيبات يكذبن ويقسمن أن من يتهمونهم كانوا معهن طوال الوقت، ولا يستطيع البوليس عمل شيء حيال ذلك. وراحت السيدة "**كوبلي**" تروي كيف كان الجيران يخرجون زرافات؛ للبحث عن الأطفال المختفين ويعثرون عليهم في أماكن مختلفة وإن هذا كان بلا ريب فعل مجنون. فقالت "**توبنس**":

- أليس لديك فكرة عمن كان الجاني؟ هل تعتقدين فعلا أنه كان غريبا؟

- قد يكون غريبا عنا، ولكنه لابد أن يقيم في دائرة قطرها اثنان وثلاثون كيلومترا بالقرب من هنا، وقد يكون من المقيمين في هذه القرية. وبعد مناقشة قصيرة بين السيد والسيدة "**كوبلي**" عن صحة هذا الافتراض مضت السيدة "**كوبلي**" تروي أن الجرائم توقفت بعد سنة تقريبا، ولم يحدث شيء من هذا القبيل في المنطقة منذ هذا الوقت، وأن هذا دفع الناس إلى التفكير بأن رجال الشرطة يعرفون الجاني.

- أتعنين لأن بعض الناس رحلوا عن المنطقة فعلا؟

- بالطبع، فإن هذا يجعل الناس تتحدث كما تعرفين ويقولون قد يكون هذا أو ذاك. وترددت "**توبنس**" قبل أن تلقي السؤال التالي، ولكنها شعرت أنه نظراً لولع السيدة "**كوبلي**" بالكلام فإنها لن تمتعض:

- من كان الجاني في رأيك أنت؟

– إن الأمر قد مضى عليه زمن طويل، ولذلك لا أحب أن أقول هذا، ولكن ذُكِرت بعض الأسماء وتناولتها الألسن، وقد فكر البعض أنه قد يكون السيد "**بوسقوان**".

– أهذا صحيح؟

– نعم؛ لأنه فنان وكل الفنانين طباعهم غريبة.. ولكني شخصيا أعتقد أنه هو! وقال السيد "**كوبلي**":

– لقد قال فريق أكبر أن الجاني بلاشك "**آموس بيري**". ولكن السيدة "**كوبلي**" أوضحت أن زوجته شهدت لصالحه وأنها ليست من الطراز الذي يكذب لأي سبب، وأضافت أنه في رأيها السير "**فيليب**" على الأرجح. ومرة أخرى شعرت "**توبنس**" بالدوار فهذه شخصية أخرى تسمع بها: «السير "**فيليب**"؟ من هو السير "**فيليب**"؟». استطردت السيدة "**كوبلي**" حديثها قائلة:

– السير "**فيليب ستارك**"، وهو يقيم في منزل "**روندر**"، وهو المنزل الذي أقيم مكان الدير الذي كان يعيش فيه آل "**روندر**" قبل أن يحترق.. وبوسعك أن ترِيْ مقابرهم ولوحاتهم التذكارية في الكنيسة. إن آل "**روندر**" في هذه المنطقة منذ عهد الملك "**جيمس**". وقالت "**توبنس**":

– هل كان السير "**فيليب**" قريبا لآل "**روندر**"؟

– كلا، لقد كوَّن هو أو والده ثروة ضخمة من صناعة الصلب أو شيء من هذا القبيل، وكان السير "**فيليب**" رجلا غريبا فمصانعه في الشمال، في حين أنه كان يقيم هنا في عزلة كأنه ناسك.. إنه كان شاحبا ونحيفا ومغرما بالزهور، ويجمع أنواعا مختلفة من الزهور البرية. لا يهتم بها أحد وأعتقد أنه ألَّف كتابا عنها.. آه نعم.. إنه كان ذكيًّا جدا، وكانت زوجته سيدة لطيفة وجميلة جدا، ولكنها كانت تبدو في رأيي حزينة. وقال السيد "**كوبلي**" غير مصدق:

– إنك مجنونة لو خطر لك أن القاتل يمكن أن يكون السير "**فيليب**".. فقد كان السير "**فيليب**" مغرما بالأطفال، وكان دائما يقيم لهم حفلات.

– نعم.. إني أعرف أنه كان دائما يقيم حفلات يوزع فيها جوائز لطيفة على الأطفال ويقيم سباقات بالبيض والملاعق ويقدم حلوى وشايا.. فلم يكن لديه هو أطفال، وكان في كثير من الأحيان يوقف الأطفال في الطريق ويعطيهم حلوى أو قطعة

نقود صغيرة ليشتروا حلوى.. ولكنني أعتقد أن هذا كان أكثر من الطبيعي، وقد خطر لي أن هناك شيئًا خطأ عندما تركته زوجته فجأة.

– متى تركته زوجته؟

– بعد حوالي ستة أشهر من بدء كل هذه الجرائم، وكان قد قتل ثلاثة أطفال في ذلك الوقت، وقد ذهبت الليدي "**ستارك**" فجأة إلى جنوب "**فرنسا**" ولم تعد ثانية قط.. ولم تكن من الطراز الذي يفعل شيئا كهذا فقد كانت سيدة هادئة محترمة، وما كانت لتهجره من أجل رجل آخر.. ولكن لماذا رحلت وتركته؟ إني أرى أن السبب أنها كانت تعرف شيئا.. أو اكتشفت شيئًا..

– أما زال يعيش هنا؟

– ليس بصفة منتظمة، إنه يأتي مرة أو مرتين في العام، ولكن المنزل يظل مغلقا أغلب الوقت وبه حارس والآنسة "**بلاي**" –التي كانت فيما مضى سكرتيرته– ترعى شؤونه.

– وزوجته؟

– لقد ماتت "**أسليدة**" المسكينة بعد فترة قصيرة من رحيلها للخارج، وهناك لوحة تذكارية باسمها في الكنيسة ولابد أن الأمر كان فظيعا بالنسبة إليها.. وربما لم تكن متأكدة في أول الأمر، ثم بدأت تشك في زوجها، ثم لعلها تأكدت من الأمر بعد ذلك ولم تستطع احتماله فرحلت. واستطردت السيدة "**كوبلي**" :

– كل الذي أستطيع أن أقوله، هو أنه كان هناك شيء مشبوه في تصرفات السير "**فيليب**" وأنه كان مغرما زيادة عن اللزوم بالأطفال وأعتقد أن هذا أمر غير طبيعي. فقال السيد "**كوبلي**" :

– تخيلات نساء. ونهضت السيدة "**كوبلي**" وبدأت ترفع أدوات الطعام. وقال السيد "**كوبلي**" :

– خير ما تفعلين أنك ستسببين أحلاما مزعجة لهذه السيدة لو ظللت تروين أحداثا انتهت منذ سنوات ولا شأن لأحد بها هنا الآن. فقالت "**توبنس**" :

– لقد كان حديثا ممتعا، ولكني أشعر برغبة شديدة في النوم، وأعتقد أنه يستحسن أن أذهب إلى فراشي الآن. وآوت إلى فراشها بعد أن شكرت مضيفتها ووعدت السيدة

"**كوبلي**" بإيقاظها في الثامنة صباحًا.. وفي الفراش بدأت كل الروايات التي سمعتها تدور في رأسها: أطفال كثيرون ميتون.. إن كل ما كانت "**توبنس**" تريده هو طفل واحد ميت خلف مدفأة. ونامت وحلمت أحلاما مفزعة.. وسمعت دقات: "كلانج.. كلانج.. كلانج". واستيقظت "**توبنس**".. كان هذا هو صوت السيدة "**كوبلي**" وهي تطرق الباب، ودخلت وهي تبتسم ووضعت الشاي بجوار السرير.. وفكرت "**توبنس**": "لا يوجد أحد يبدو أكثر مرحا من السيدة "**كوبلي**" فهي لم تحلم أحلاما مزعجة!".

❖❖❖❖❖

الفصل الثامن

قالت السيدة "**كوبلي**" وهي تخرج من الغرفة:

– إنه يوم آخر. هذا هو ما أقوله دائما عندما أستيقظ. وفكرت "**توبنس**" وهي ترتشف الشاي: «يوم آخر؟ إني لأتساءل إن كنت أتصرف بسذاجة..؟ جائز.. كنت أود لو أن "**تومي**" كان هنا لأتحدث معه فلقد اختلط الأمر عليَّ من حديث الليلة الماضية.» وقبل أن تغادر "**توبنس**" غرفتها كتبت في مذكرتها أسماء وحوادث عديدة ومختلفة مما سمعته في الليلة السابقة. إنها روايات ميلودرامية من الماضي ربما تتضمن ذرات من الحقيقة هنا وهناك، ولكن أغلبها قيل وقال وخيال. وفكرت "**توبنس**": "إني بدأت أعرف الحياة الغرامية لمجموعة من الناس ابتداء من القرن الثامن عشر على ما أظن.. ولكن ما قيمة هذا؟ وما الذي أبحث عنه؟ إني لم أعد أعرف حتى هذا، والشيء المؤسف هو أني تورطت ولا أستطيع أن أتخلى عن الموضوع". وبما أنه كان لديها شك قوي في أن أول شخص ستتورط معه هو الآنسة "**بلاي**" التي أدركت "**توبنس**" أنها أكثر ما يهددها في "**سوتون شنسلور**"، فقد تجنبت كل العروض الكريمة من استعدادها للمعاونة بأن أخذت سيارتها وقادتها بسرعة متجهة إلى "**مركيت باسنج**" ولم تتوقف إلا حين اعترضت الآنسة "**بلاي**" طريق السيارة وهي تصيح، وحينئذ شرحت "**توبنس**" لهذه السيدة أن لديها موعدا عاجلا.. متى

ستعود؟ لم تكن "**توبنس**" متأكدة.. هل تتناول معها الغداء؟.. هذا كرم شديد من الآنسة "**بلاي**" ولكن "**توبنس**" تخشى..

– إذن الشاى في الرابعة والنصف سأنتظرك. كان تقريبا أمرًا ملكيًا وابتسمت "**توبنس**" وأومأت ثم تابعت طريقها.. وفكرت "**توبنس**".. إنها لو حصلت على أي معلومات مهمة من السماسرة في "**مركيت باسنج**" فقد تستطيع "**نيلي بلاي**" أن تضيف معلومات أخرى مفيدة فإنها كانت من هذا الطراز من النساء اللائي يتفاخرن بمعرفة كل شيء عن كل شخص، والعيب هو أنها ستكون مصممة على معرفة كل شيء عن "**توبنس**"، ولكن من المحتمل أن تكون "**توبنس**" قد تمالكت نفسها بعد الظهر بطريقة كافية بحيث تسترجع قدرتها على التأليف!

وفي "**مركيت باسنج**" وضعت سيارتها في مكان انتظار السيارات في الميدان الرئيسي واتجهت إلى مكتب البريد ودخلت كابينة تليفون خالية واتصلت بمنزلها وقالت لـ"**ألبرت**" إنها ستعود في اليوم التالي في موعد العشاء وطلبت منه إعداد دجاجة للعشاء.. وبعد أن اطّلعت "**توبنس**" علي دليل في البريد وجدت أن هناك أربعة سماسرة للمنازل في البلدة وأن ثلاثة منهم في الميدان. وبدأت "**توبنس**" بمكتب السادة "**لوفيودي**" و"**سليكر**"، ولكنها عرفت هناك أنهم ليسوا الوكلاء لـ" **وترسيد**"، وأخبرها السيد "**سليكر**" بترفع بأنه ربما يكون في وسع مكتب "**بلودجيت**" و"**بورجيس**" معاونتها؛ لأنهم الوكلاء عن بعض المنازل في هذه المنطقة. وذهبت "**توبنس**" لهذا المكتب وقابلت السيد "**سبريج**" وأخبرته برغبتها في شراء "**وترسيد**". واعترف السيد "**سبريج**" أنه يعرف هذا المنزل، ولكنه لم يبد مهتما بالأمر وعقب السيد "**سبريج**" قائلا:

– أخشى أنه ليس معروضا للبيع فإن المالك لا يريد أن يبيعه.

– من المالك؟

– إني أشك في الحقيقة، فقد انتقل بين أيدٍ كثيرة، وكانت هناك إشاعة في وقت ما أن الحكومة استولت عليه عنوة.

– ولأي غرض تريده أية حكومة محلية؟

– لو كان بوسعك أن تجيبي عن هذا السؤال يا سيدة "**بيريسفورد**" لكنت أحكم

في أغلب القضايا في أيامنا هذه، فإن طرق المجالس البلدية المحلية والجمعيات التخطيطية دائما محفوفة بالألغاز.. إن الجزء الخلفي من المنزل أُجريت له بعض الإصلاحات الضرورية وأُجِّر بثمن بخس جدا إلى.. آه.. نعم إلى السيد والسيدة "**بيري**"، أما عن الملاك الفعليين فإن المالك يقيم في الخارج ويبدو أنه لم يعد يهتم بالمكان، وأظن أنه كانت هناك مشكلة؛ لأن الوارث كان قاصرا وكان الميراث يدار بواسطة أوصياء وقامت بعض الصعوبات القانونية -إن التقاضي غال يا سيدة "**بيريسفورد**" وأظن أن المالك لا يهمه لو تهدَّم المنزل- فلم تجر به أية إصلاحات إلا للجزء الذي يقيم فيه آل "**بيري**".. والأرض بالطبع قد يرتفع ثمنها في المستقبل، أما إصلاح المنازل الآيلة للهدم فهو أمر قلما يكون مريحا.. وإذا كنت مهتمة بمنزل من هذا القبيل فإني متأكد أننا نستطيع أن نعرض عليك شيئا مريحا أكثر لك.. هل تسمحين لي بأن أسألك عما أعجبك بوجه الخصوص في هذا المنزل؟ فقالت "**توبنس**":

– لقد أعجبني منظره، فإنه منزل جميل جدا.. وقد رأيته أول مرة من القطار. وقال السيد "**سبريج**" وهو يحاول على قدر المستطاع إخفاء تعبير ملامحه الدالة على رأيه في سخافة النساء:

– آه، فهمت.. لو كنت مكانك لنسيت الأمر كله.

– أظن أنه بوسعك أن تكاتب الملاك، وتسألهم إن كانوا على استعداد لبيع المنزل أو هل يمكن أن تعطيني عنوانهم أو عنوانه؟

– سنتصل بمحامي الورثة لو صممت، ولكن ليس لديّ أمل كبير. وقالت "**توبنس**" بلهجة توحي بالسذاجة:

– أظن أن المرء يجب دائما أن يتصل بالمحامين في هذه الأيام، وهم دائما يبطئون في كل أمر.

– آه نعم، إن القانون مشهور بالتأخيرات.

– وكذلك البنوك! وبدا على السيد "**سبريج**" بعض الدهشة:

– البنوك.

– يعطي أناس كثيرون عنوانهم على بنك وهذا أيضا متعب جدا.

- نعم.. نعم.. كما تقولين ولكن الناس لا يستقرون في هذه الأيام، ويتنقلون كثيرا وبعضهم يقيم في الخارج.. وفتح درج مكتبه وقال السيد "**سبريج**":

- لدي هنا منزل يسمى "**كروسجيتس**" على بعد ثلاثة كيلومترات من "**مركيت باسنج**"، وهو في حالة جيدة وبه حديقة لطيفة. ونهضت "**توبنس**" وقائلة:

- كلا شكرا لك. ثم حيت السيد "**سبريج**" بحزم وخرجت إلى الميدان.. وبعد ذلك زارت المكتبين الآخرين لسماسرة المنازل، ولكنها وجدت أنهما لا شأن لهما بـ"**وترسيد**" ثم ذهبت إلى فندق صغير حيث تناولت غداءً جيداً، وهي تشعر أنها لم تستفد كثيرا من هذا الصباح. وبينما كانت "**توبنس**" تمر بالكنيسة في "**سوتون شنسلور**" رأت القس يخرج من فناء الكنيسة وكان يمشي بتعب، فتوقفت "**توبنس**" بجواره وقالت:

- هل مازلت تبحث عن هذا القبر؟وقال القس وهو واضع إحدى يديه على مؤخرة رأسه:

- آه، يا عزيزتي.. إن نظري لم يعد جيدا، وأغلب الكلمات قد مُسحت تقريبا وظهري يؤلمني فإن معظم أحجار الشواهد واقعة على الأرض، وفي بعض الأحيان أخشى عندما أنحني فوقها أني لن أستقيم أبدا ثانية. فقالت "**توبنس**":

- لا أنصحك بفعل هذا مرة أخرى، وما دمت قد بحثت في سجل الإبراشية فإنك تكون قد فعلت كل ما بوسعك.

- أعرف هذا، ولكن الرجل المسكين يبدو مهتما جدا، وأنا متأكد أنه تعب دون جدوى ولكني شعرت أن واجبي حقيقة أن أساعده، ولا تزال لديّ منطقة قصيرة لم أفحصها هناك بعد شجرة الصنوبر حتى الحائط البعيد، ولو أن معظم الشواهد من القرن الثامن عشر، ولكني أحب أن أشعر أني أنهيت عملي كما يجب وعند ذلك لن ألوم نفسي، ولكني سأترك هذه المهمة حتى الغد.

- فلا يجب أن تجهد نفسك كثيرا في يوم واحد. ثم أضافت:

- اسمع.. بعد أن أتناول الشاى مع الآنسة "**بلاي**" سأذهب وألقي نظرة بنفسي.. هل قلت من شجرة الصنوبر حتى الحائط؟

- ولكني لا يمكن أن أطلب منك.

– لا عليك.. إن هذا أمر يطيب لي، ففي رأيي أن التجول بين المقابر شيء شيق جدا، فالكتابات القديمة تعطيك صورة للناس الذين كانوا يعيشون هنا وسأستمتع بهذا كثيرا.. ارجع إلى منزلك واسترح.

– حسنا.. إني بالطبع يجب أن أعدٌ موعظتي لهذا المساء وهذه حقيقة واقعة. إنك صديقة كريمة جدا، كريمة جدا. وابتسم لها وانصرف إلى الإبراشية، وذهبت "**توبنس**" إلى منزل الآنسة "**بلاي**" فوجدتها في انتظارها، ونظرت الآنسة "**بلاي**" بارتياب إلى حقيبة "**توبنس**" الخاوية، فأخبرتها "**توبنس**" أنها لم تجد شيئا يعجبها في "**مركيت باسنج**" لتشتريه، وصفر براد الشاي من المطبخ فهرعت الآنسة "**بلاي**" لترفعه عن النار وبعثرت حفنة من الخطابات كانت على المنضدة في البهو في انتظار رجل البريد. وانحنت "**توبنس**" والتقطتها، ولاحظت وهي تعيدها إلى المنضدة أن الخطاب الأعلى مرسل إلى السيدة "**يورك**"، منزل "**روز تيليس**" للسيدات المسنات في عنوان في "**كومبرلند**". وفكرت "**توبنس**": "لقد بدأت أشعر حقا أن البلاد كلها ليس فيها إلا بيوتا للعجزة! وأظن أني و"**تومي**" سنقيم في أحدها بعد قليل". وجلست السيدتان لتناول الشاي، وكان حديث الآنسة "**بلاي**" أقل ميلودرامية من حديث السيدة "**كوبلي**" وكان موجها أكثر للحصول على معلومات أكثر من الإفضاء بها. وأعطت لها "**توبنس**" معلومات مبهمة عن عمل زوجها وعن ولديها المتزوجين، ثم حوّلت مجرى الحديث إلى مختلف أوجه نشاط الآنسة "**بلاي**".. فأفاضت الآنسة "**بلاي**" في الحديث عن مشاكلها في جمعياتها المختلفة وعن صحة القس وكيف يجب أن يُجبر على الاعتناء بصحته. وأطرت "**توبنس**" على البسكويت وشكرت مضيفتها ثم نهضت لتنصرف وهي تطري نشاط الآنسة "**بلاي**" وتشكرها على تزكيتها لدى السيدة "**كوبلي**". وقالت الآنسة "**بلاي**":

– إنها امرأة يعتمد عليها ولو أنها بالطبع ثرثارة.

– آه! لقد وجدت حكاياتها المحلية مسلية جدا.

– إنها لا تعرف ما الذي تتحدث عنه معظم الأوقات! هل ستقيمين هنا مدة طويلة؟

– آه كلا.. إني سأعود غدا لبيتي وقد خاب ظني؛ لأني لم أسمع عن أي منزل صغير مناسب، وكان لدي أمل في هذا المنزل الجميل بجوار القناة..

– من حسن حظك أنك لم تقعي فيه، فإنه في حالة سيئة ويحتاج لإصلاحات فالملاك غير موجودين.. أمر مخجل..

– لم أستطع حتى أن أعرف من هو مالكه، ولعلك أنت تعرفين إذ يبدو أنك تعرفين كل شيء هنا.

– لم أهتم أبدا بهذا المنزل، فإن مالكه يتغير باستمرار، ولا يستطيع المرء أن يتابع أخباره.. إن آل "**بيري**" يقيمون في نصفه، والنصف الآخر ترك للخراب. وسلمت "**توبنس**" على الآنسة "**بلاي**" وانصرفت، وبعد أن وصلت إلى منزل السيدة "**كوبلي**" وجدت المنزل خاليا فصعدت إلى غرفتها وغسلت وجهها ووضعت حقيبتها الخالية وتجملت ثم أخذت مذكرتها لتدون فيها أي شيء، وخرجت من المنزل واتجهت إلى المقبرة، وكانت قد عزمت على الوفاء بوعدها للقس إذ كانت تشفق عليه، وهناك مضت تفحص الشواهد على مهل، وعندما اقتربت من الحائط وجدت أن معظم الشواهد ملقاة على الأرض نصف مدفونة بين الحشائش كما كان الحائط مهدما هنا وهناك، وبما أنه خلف الكنيسة فلا يمكن مشاهدته من هناك ولا ريب أن الأطفال يأتون هنا ويلهون ويعبثون كما يشاؤون، وانحنت "**توبنس**" فوق أحد الشواهد الملقاة على الأرض وكانت الكلمات الأصلية لا تكاد تقرأ، ولكن عندما رفعت "**توبنس**" الحجر من أحد الجوانب رأت بعض الحروف وقد كتبت بدون عناية فانحنت لتقرأها واستطاعت أن تميز بعض الكلمات: "من.. يؤذي.. أحد هؤلاء الصغار.." ثم تحت هذه الكلمات كان محفوراً بيد غير خبيرة: "هنا ترقد "**ليلي وترز**"". وشهقت "**توبنس**" وشعرت بخيال خلفها، وقبل أن تستطيع الاستدارة ضربها بشيء على مؤخرة رأسها. ووقعت إلى الأمام على الشاهد وغابت في بحر من الألم والظلام.

❖❖❖❖❖

الفصل التاسع

فتح "**ألبرت**" الأمين الباب وهو يقول بابتسامة ترحيب مشرقة:

– يسعدني أن أراك ثانية يا سيدي.

– وأنا سعيد بعودتي.. وأعطاه "**تومي**" حقيبة.. أين السيدة "**بيريسفورد**"؟

– لم تعد بعد يا سيدي.

– أتعني أنها مسافرة؟

– إنها مسافرة منذ ثلاثة أو أربعة أيام، ولكنها ستعود وقت العشاء فقد اتصلت تليفونيا أمس وقالت ذلك.

– ماذا تعتقد أنها تفعل يا "**ألبرت**"؟

– لا أعرف يا سيدي، فقد أخذت السيارة وأخذت معها عددا من أدلة القطارات وقد تكون في أي مكان. وقال "**تومي**":

– يمكنك أن تقول ذلك فقد تكون في "**جونز جروت**" أو "**لندزاند**" ولم تلحق في "**ليتل ديتر**" في طريق العودة. ليبارك الله السكك الحديدية البريطانية. أتقول إنها اتصلت أمس؟ هل قالت من أين تتحدث؟

– كلا.

– في أي ساعة اتصلت أمس؟

– صباح أمس قبل موعد الغداء بقليل.. لقد قالت فقط إنها بخير، وليست متأكدة تماما من موعد عودتها، ولكنها تظن أنها ستعود قبل العشاء بكثير، واقترحت إعداد دجاجة. هل هذا يناسبك يا سيدي؟ وقال "**تومي**" وهو ينظر في ساعته:

– نعم، ولكنها يجب أن تسرع بالحضور الآن.. ولكن كيف حالك يا "**ألبرت**"؟ هل كل شيء على ما يرام في منزلك؟

– لقد خفنا أن تكون لدينا حصبة، ولكن لا بأس فقد قال الطبيب إنها مجرد حصبة ألمانية. وصعد "**تومي**" السلم وهو يصفر، وذهب إلى الحمَّام فاغتسل وحلق ذقنه ثم مضى يتجول في الغرف الخالية التي بدت باردة وبدأ يشعر باكتئاب.

– سيدي.. كان المتحدث هو "**ألبرت**" وهو واقف على عتبة الباب.

– نعم؟

– لقد بدأت أقلق على الدجاجة.

– اللعنة على هذه الدجاجة! يبدو أنها تثير أعصابك.

– لقد رتبت أموري على أساس أنكما لن تتأخرا عن الساعة الثامنة للجلوس

لتناول العشاء.

– كنت أنا أيضا أظن ذلك.. ونظر "**تومي**" إلى ساعته.. يا إلهي إنها تقريبا الثامنة وخمس وثلاثون دقيقة.

– نعم يا سيدي، والدجاجة.. فقال له "**تومي**":

– هيا أخرج هذه الدجاجة من الفرن وسنأكلها فإن "**توبنس**" تستحق أن تُحرم منها. أكانت سترجع قبل العشاء بكثير يا للعجب؟!

– إن بعض الناس يتناولون العشاء متأخرا. وسأله "**تومي**" عما إذا كانت لديه أية فكرة عن المكان الذي ذهبت إليه "**توبنس**"، ولكن "**ألبرت**" نفى ذلك وأخبره أن كل ما يعلمه هو أنها كانت تنوي القيام برحلة بالقطار؛ لأنها كانت مشغولة بالرجوع إلى دليل القطار وجداول المواعيد.

– حسنا إن لكل منًا طريقته في التسلية على ما أظن، ويظهر أن طريقتها هي السفر بالقطار، ومع ذلك فإني لأتساءل أين هي؟ إنها على الأرجح جالسة في غرفة انتظار للسيدات في المحطة سعيدة.

– ألم تكن تعرف أنك ستعود اليوم يا سيدي؟ إنها بالتأكيد ستصل بطريقة ما. وأدرك "**تومي**" أن "**ألبرت**" يعبر عن ولائه له وعن استيائه؛ لأن "**توبنس**" لم تعد في الوقت المناسب للترحيب بزوجها كما يجب، وانصرف "**ألبرت**" لينقذ الدجاجة من الاحتراق في الفرن. وتوقف "**تومي**" الذي كان على وشك أن يتبعه ووقف ينظر إلى الصورة التي فوق الشماعة واقترب منها ببطء وراح يفحصها، غريب أن تشعر "**توبنس**" أنها رأتها من قبل، وأنزلها من مكانها لينظر إليها عن قرب، وكان عليها إمضاء الرسام "**بوسورث**".. "**بوشيه**" لابد أن يأتي بمرآة مكبرة ليقرأ الاسم بوضوح، ودق جرس العشاء فنزل "**تومي**" وهو يفكر: «إن من الغريب أن "**توبنس**" لم تحضر حتى الآن فحتى لو أن أحد الإطارات قد انفجر، وهو أمر يبدو محتملا، فلماذا لم تتصل تليفونيا لتشرح الأمر أو لتعتذر عن تأخيرها، كان يجب أن تعرف أني سأقلق.» ودق جرس التليفون فقال "**ألبرت**":

– أعتقد أنها هي.. ووضع الطبق بسرعة على البوفيه وهرع من الغرفة، وقام "**تومي**" تاركا طبق الدجاج وتبع "**ألبرت**" وكان يقول:

– هيا سأرد أنا.. عندما تكلم **"ألبرت"** :

– نعم يا سيدي؟ نعم السيد " **بيريسفورد**" موجود، ها هو الآن وأدار رأسه نحو **"تومي"** وقال:

– إنه طبيب يدعى **"موري"** ، يطلبك يا سيدي.

– الدكتور **"موري"** ؟ وفكر **"تومي"** لحظة.. إن الاسم يبدو مألوفا ولكنه لا يستطيع أن يتذكره، أيكون قد وقع حادث لـ**"توبنس"** ؟ ثم تذكر وهو يتنهد أن الدكتور **"موري"** كان الطبيب المعالج في **"سوني ريدج"** .. ربما هناك شيء يتعلق بأوراق دفن الخالة **"اده"** .. فهذا ما تخيله **"تومي"** في الحال.. لابد من أنها ورقة كان يجب أن يمضيها هو أو الدكتور **"موري"** . وقال الطبيب:

– آه.. إني سعيد لأني وجدتك.. أرجو أن تكون قد عرفتني، فقد كنت أعالج الآنسة **"فانشو"** خالتك..

– نعم، أتذكر بالطبع.. ماذا بوسعي أن أفعله؟

– كنت في الحقيقة أود أن أتحدث إليك.. هل بوسعنا أن نرتب وقتا للقاء في المدينة؟

– نعم، أظن أن هذا ممكن بسهولة.. ولكن أهو شيء لا تستطيع أن تذكره في التليفون؟

– أُفضِّل ذلك، فليس الأمر عاجلا، ولكني أحب أن أتحدث معك.

– هل هناك شيء على غير ما يرام؟

– كلا، فمن المحتمل أني أُجسِّم الموضوع.. ولكن حدثت تطورات غريبة في **"سوني ريدج"** .

– هل هو شيء يتعلق بالسيدة **"لنكستر"** ؟

– السيدة **"لنكستر"** ؟ وبدت الدهشة على صوت الطبيب:

– كلا إنها رحلت منذ مدة، قبل موت خالتك في الواقع، هذا أمر آخر مختلف تماما.

– كنت مسافرا وعدت تواً.. هل من الممكن أن أتصل بك غدا صباحا، وقد نستطيع أن نتفق على موعد.

– لا بأس، سأعطيك رقم تليفوني وسأكون في عيادتي حتى العاشرة صباحا. وسأل "**ألبرت**" عندما عاد "**تومي**" لحجرة الطعام:

– أخبار سيئة؟ وقال "**تومي**" بعصبية:

– بالله لا تقلق يا "**ألبرت**".. كلا إنها ليست أخباراً سيئة بالطبع.

– ظننت أن تكون سيدتي..

– إنها بخير، وهي دائما هكذا، وقد ذهبت على الأرجح تقتفي أثرا لا وجود له فانت تعرفها. إني لن أقلق بعد ذلك.. خذ طبق الدجاج هذا فقد احتفظت به ساخنا في الفرن، ولم يعد يؤكل. جئني ببعض القهوة ثم سأذهب إلى الفراش. سيكون هناك خطاب على الأرجح غدا.. خطاب تأخر في البريد، فانت تعرف حال البريد عندنا، أو ستكون هناك برقية منها، أو ستتصل تليفونيا. ولكن لم يكن هناك في اليوم التالي خطاب ولا برقية ولا تليفون. ونظر "**ألبرت**" إلى "**تومي**" وفتح فمه وأقفله عدة مرات بدون أن يتكلم، وقد قدَّر بحق أن التنبؤات المظلمة من جانبه لن تقابل بترحيب.. وأخيرا رأف به "**تومي**" وبلع باقي فطوره ثم قال:

– حسنا يا "**ألبرت**" سأقولها أنا أولا.. أين هي؟ ماذا حدث لها؟ وماذا سنفعل إزاء ذلك؟

– أنتصل بالبوليس يا سيدي؟

– لست متأكدا فانا لا أريد التعجل..

– لو أن حادثا وقع لها؟

– إن معها رخصة قيادتها وكثير من أوراق إثبات الشخصية، والمستشفيات تبلغ عن الحوادث في الحال وتتصل فورا بالأقارب وأنا لا أريد أن أتعجل فقد.. فقد لا تحب ذلك. أليس لديك أية فكرة.. أية فكرة بالمرة يا "**ألبرت**" عن المكان الذي كانت تقصده؟ ألم تقل أي شيء؟ ألم تذكر أي مكان معين ولا أي اسمٍ معين؟ وهز "**ألبرت**" رأسه.

– ما كان شعورها؟ سعيدة؟ حزينة؟ قلقة؟ وكانت إجابة "**ألبرت**" في الحال:

– كانت في غاية السعادة وتكاد تنفجر من فرط سرورها. فقال "**تومي**":

– مثل كلب صيد يتتبع أثراً.

– بالضبط يا سيدي.. فأنت تعرفها..

– عثرت على دليل.. إني لأتساءل.. وتمهل "**تومي**" ليفكر: «لقد عثرت على دليل وكما قال توًّا لـ"**ألبرت**" هرعت "**توبنس**" مثل كلب يتتبع أثرًا، وقد اتصلت منذ يومين لتعلن عودتها. إذن لماذا لم تعد؟ ربما هي جالسة الآن في مكان ما منهمكة في رواية أكاذيب للناس لدرجة أنه ليس في وسعها أن تفكر في شيء آخر!» وكان "**تومي**" في حيرة فلو كانت "**توبنس**" تقتفي أثرًا، وذهب هو ليبلغ عن اختفائها فستغضب وتستخف ما فعله، ولكن هل هي في خطر؟ لم يظهر خطر حتى الآن إلا في خيالها، ولو ذهب إلى البوليس وقال إن زوجته لم تعد للمنزل كما سبق أن أعلنت، فإن رجال البوليس سيسخرون منه داخليا ثم سيسألون بكياسة عن أصدقاء زوجته من الرجال.. وقال "**تومي**":

– سأجدها بنفسي. إنها في مكان ما، إما في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، فليس لدي فكرة وهي بلهاء؛ لأنها لم تقل أين كانت عندما اتصلت تليفونيا.

– لعلها في أيدي عصابة..

– آه! لا تكن كالصبي يا "**ألبرت**" فقد كبرت على هذا الحديث منذ سنوات..

– ما الذي ستفعله يا سيدي؟ ونظر "**تومي**" إلى الساعة ثم قال:

– سأذهب إلى "**لندن**"، وأبدأ بتناول الغداء مع الدكتور "**موري**" في النادي فقد اتصل بي أمس ولديه شيء يود أن يقوله لي عن أمور خالتي الراحلة وقد أحصل منه على شيء مفيد، فإن الأمر كله بدأ في "**سوني ريدج**"، كما سآخذ معي الصورة التي فوق الشماعة في غرفة نومنا.

– هل تعني أنك ستأخذها إلى "**سكوتلنديارد**" يا سيدي؟

– كلا، سآخذها إلى "**بوند ستريت**".

الفصل العاشر

قفز "**تومي**" من التاكسي ودفع الأجرة للسائق ثم انحنى ليأخذ من التاكسي الصورة الملفوفة بالورق ودخل بها "**معرض الاتيني الجديد**" وهو واحد من أعرق وأهم

معارض اللوحات في "**لندن**". واقترب منه شاب أشقر وقد أشرق وجهه بابتسامة وقال:

– مرحبا "**تومي**"، لم أرك منذ زمن طويل. ما الذي تحت ذراعك؟ لا تقل لي إنك بدأت ترسم في شيخوختك؟ إن كثيرا من الناس يفعلون ذلك، والنتائج في العادة مؤسفة. ولكن "**تومي**" طمأنه من هذه الجهة وقال له إنه يريد فقط رأيه كخبير في الرسم الذي معه. وفك "**روبرت**" اللفافة، ثم أخذ الصورة ووضعها فوق مقعد وحدق إليها ثم تراجع بضع خطوات ونظر لـ"**تومي**" وقال:

– حسنا ما الذي تريد أن تعرفه؟ هل تريد أن تبيعها؟

– كلا.. لا أريد أن أبيعها يا "**روبرت**". إنما أريد أولا أن أعرف من الذي رسمها.

– لو كنت تريد أن تبيعها فإن من السهل بيعها في هذه الأيام، ولم يكن هذا هو الحال منذ عشر سنوات، ولكن "**بوسقوان**" عادت موضته الآن.

– "**بوسقوان**"؟ هل هذا هو اسم الفنان؟ لقد رأيت إمضاء يبدأ بحرف "ب"؛ ولكنني لم أستطع قراءة الاسم.

– آه.. إنه "**بوسقوان**" بالتأكيد، وهو رسام كان محبوبا جدا منذ نحو خمسة وعشرين عاما، وكانت لوحاته تباع بثمن طيب وأقام عدة معارض، وكان الناس يقبلون على شراء لوحاته، وهو رسام جيد جدا، ثم بحكم عجلة الزمن بطلت موضته، وأخيرا لم يعد هناك طلبات للوحاته، ولكن أخيرا عاد الرواج للوحاته هو و"**ستيشورت**" و"**فونديلا**". وقال "**تومي**" مرة أخرى:

– "**بوسقوان**"! هل لا يزال يرسم؟

– كلا، إنه مات منذ بضع سنوات، وكان قد شاخ وأعتقد أنه كان في الخامسة والستين عندما مات، وهو رسام خصيب وله لوحات كثيرة، ونحن نفكر في الواقع في إقامة معرض لرسوماته هنا بعد أربعة أو خمسة أشهر.. وأعتقد أننا سنكسب الكثير من المعرض.. لماذا تهتم به بهذه الدرجة؟ وقال له "**تومي**":

– إنها قصة يطول شرحها، ثم سأله إن كان يعرف مكان المنزل الذي رسمه الفنان، ولكن "**روبرت**" لم يستطع أن يخبره بذلك. فتساءل "**تومي**":

– أي طراز من الرجال كان؟

ـ لم أعرفه شخصيا فهو قبل عهدي، ولكنني سمعت أنه كان يقدر نفسه أكثر مم يجب، ويعتقد أنه رسام أفضل مما كان وأنه جمع بعض المال، وكان طيبا وهادئ ومحبوبا ويولع بالفتيات.

ـ أليس لديك فكرة عن مكان هذا الجزء من الريف؟ إنه في "**إنجلترا**" على ما أظن.

ـ نعم، أعتقد ذلك.. هل تريد مني أن أتحرى الأمر لك؟

ـ هل هذا بوسعك؟

ـ إن أحسن ما يمكن عمله هو سؤال أرملته.. فقد تزوج "**إيما وينج**" النحات المشهورة. إن إنتاجها ليس كثيرا ولكن عملها جبار، وبوسعك أن تذهب وتسألها فإنها تقيم في "**همبستيد**"، وبوسعي أن أعطيك العنوان فقد كنا نراسلها كثيرا في الآونة الأخيرة بخصوص المعرض الذي سنقيمه للوحات زوجها، وسنعرض أيضاً بعض القطع الصغيرة لنحتها أيضا.. سآتيك بالعنوان. وذهب إلى المكتب وأخذ بطاقة وكتب عليها شيئا ثم عاد وقدمها لـ"**تومي**" وهو يقول:

ـ هاك يا "**تومي**"، إني لا أعرف ما هو اللغز العميق فانت دائما رجل ألغاز، أليس كذلك؟ إن اللوحة التي لديك أحد لوحات "**بوسقوان**" الجيدة وقد نحب أن نعرضها في المعرض، سأرسل لك رسالة صغيرة لأذكرك عندما يقترب الوقت.

ـ أتعرف سيدة تدعى السيدة "**لنكستر**"؟

ـ لا أستطيع أن أتذكر الآن.. هل هي فنانة أو شيء من هذا القبيل؟

ـ كلا، لا أعتقد ذلك فإنها مجرد سيدة عجوز تعيش منذ سنوات في بيت للسيدات المسنات وصلتها بالموضوع هو أن الصورة كانت ملكها وأهدتها لقريبة لي.

ـ لا أستطيع أن أقول إن الاسم يعني أي شيء لي.. من الأفضل أن تذهب وتتحدث مع السيدة "**بوسقوان**".

ـ صفها لي؟

ـ إنها كانت أصغر منه بعدة سنوات، ولها شخصية قوية، وأومأ برأسه مرة أو مرتين نعم لها شخصية قوية وأظن أنك ستكتشف ذلك. استقبل "**تومي**" الدكتور "**موري**" ببعض الفضول، إنه كان يظن أن الأمر يتعلق ببعض الإجراءات الرسمية المتعلقة بمو

الخالة "آده"، ولكن لماذا بحق السماء لم يستطع الطبيب أن يشير على الأقل إلى موضوع زيارته في التليفون، إن هذا أمر لا يستطيع "**تومي**" أن يتخيله. قال الدكتور "**موري**" وهو يشد على يده:

– أخشى أني تأخرت قليلا، ولكن المرور مزدحم ولم أكن متأكدا تماما من المكان، فأنا لا أعرف هذا الجزء من "**لندن**" جيدا. فقال له "**تومي**":

– من المؤسف أنك اضطررت إلى قطع هذه المسافة الطويلة فقد كان بوسعي أن أقابلك في مكان آخر أكثر ملاءمة.

– هل لديك وقت فراغ الآن؟

– نعم، لدي فراغ في الوقت الحاضر فإني كنت مسافرا في الأسبوع الماضي.

– نعم أعتقد أن أحدا أخبرني بذلك عندما اتصلت تليفونيا. وجلسا وبدأ الدكتور "**موري**" الحديث فقال:

– أنا متأكد أني أثرت فضولك، ولكننا في الواقع نواجه مشكلة في "**سوني ريدج**" وهو موضوع صعب ومحير ولا شأن لك به، وليس لدي أي حق بأن أشغلك به، ولكن ربما كنت تعرف شيئا وبوسعك أن تساعدنا.

– إني بالطبع سأفعل أي شيء في إمكاني.. هل الأمر يتعلق بخالتي الآنسة "**فانشو**"؟

– إنه لا يتعلق بها مباشرة ولكن لها به علاقة.. أبوسعي أن أتحدث معك حديثا خاصا يا سيد "**بيريسفورد**"؟

– نعم بالتأكيد.

– لقد كنت في الواقع أتحدث مع صديق، وقد كاشفني ببعض الأمور عنك وفهمت أنك قمت بعمل حساس في خلال الحرب الماضية.

– أنا لا أسميه هكذا فهو لم يكن مهمًّا بهذه الدرجة.

– إني أدرك تماما أنه ليس بالأمر الذي يتحدث عنه المرء.

– لا أعتقد أن هذا يهم الآن فقد انتهت الحرب منذ زمن طويل، وكنت أنا وزوجتي أصغر سنا.

– على أي حال ليس لذلك أية علاقة بالموضوع الذي سأتكلم فيه معك، ولكني

على الأقل أشعر بأن بوسعي أن أتحدث معك بصراحة وأن أثق بأنك لن تردد ما سأقوله الآن، ولو أنه من المحتمل أن نضطر إلى نشر الأمر بعد ذلك على الملإ.

– قلت إنها مشكلة في "**سوني ريدج**".

– نعم، لقد ماتت منذ قليل السيدة "**مودي**"، إحدى مريضاتنا ولا أعرف إن كنت قد قابلتها أم لا أو إن كانت خالتك قد حدثتك عنها.

– السيدة "**مودي**"؟ كلا لا أظن ذلك على الأقل على قدر ما أتذكر.

– لم تكن إحدى مريضاتنا المسنات فإنها لم تكن قد بلغت السبعين ولم يكن بها مرض خطير.. كانت مجرد إمرأة ليس لها أقارب مقربون، وتحتاج إلى من يخدمها، وهي من الطراز الذي أسميه الطراز المقرف، فهناك نساء يشبهن الدجاج عندما يكبرن فهن يثرثرن وينسين أمورا ويقعن في مآزق، ويقلقن ويصبحن عصبيات دون سبب وليس بهن أية علة، وعقولهن ليست مختلة. فقال "**تومي**":

– ولكنهن يقرقن فقط.

– إن السيدة "**مودي**" كما تقول كانت تقرق، وكانت تسبب للممرضات المتاعب –وعلى الرغم من أنهن كن يحببنها– فقد كانت من عادتها أن تنسى أنها تناولت طعامها وتثير ضجة لأنها لم تتناوله، في حين أنها تكون قد فرغت منه توًا. وقال "**تومي**" وقد بدأ يتبين الأمر:

– آه السيدة "**كاكاو**".

– ماذا تقول..؟

– آسف.. إنه اسم أطلقته أنا وزوجتي عليها، فقد كانت تصيح في طلب الممرضة "**جين**" في يوم ما عندما كنا نمر بالدهليز، وكانت تقول إنها لم تتناول الكاكاو.. لقد كانت تبدو امرأة لطيفة ثرثارة، وقد أضحكنا هذا وسميناها السيدة "**كاكاو**".. إذن فقد ماتت؟ وقال له الدكتور "**موري**" إنه لم يدهش لموتها فلا يمكن التنبؤ بموت السيدات المسنات، ولكن حالة السيدة "**مودي**" تختلف؛ لأنها كانت وهي نائمة بدون أن يظهر عليها أي أثر لمرض، وأنه لذلك استغرب الأمر ثم قال الدكتور "**موري**":

– سأستعمل جملة أثارت دائما فضولي في "**ماكبث**" مسرحية "**شكسبير**"..

لقد تساءلت دائما عما كان يعنيه "**ماكبث**" عندما قال وهو يتحدث عن زوجته "كان يجب أن تموت" . فقال "**تومي**" :

– نعم أنا أذكر أني تساءلت مرة أيضا عن قصد "**شكسبير**" ، ولا أتذكر من كان المخرج ولا من كان الممثل، ولكنني رأيت مرة هذا الإخراج ومثَّل فيه "**ماكبث**" بطريقة توحي بأنه يلمِّح لطبيب الليدي "**ماكبث**" بأنه من الأفضل أن تقتل، ويبدو أن الطبيب عمل بهذه الإشارة وحينئذ بعد أن شعر "**ماكبث**" بالأمان بعد موت زوجته وشعر أنه لم يعد في وسعها أن تؤذيه نتيجة لتدهور عقلها السريع، يعبر عن حبه وحزنه الحقيقيين بقوله : "كان يجب أن تموت فيما بعد" .

– بالضبط . . هذا هو شعوري تجاه السيدة "**مودي**" فلقد شعرت أنها كان يجب أن تموت فيما بعد، وليس منذ ثلاثة أسابيع فقط بدون سبب ظاهر. ولم يجب "**تومي**" وإنما نظر فقط إلى الطبيب بتساؤل فقال الطبيب "**موري**" مستطردا :

– تواجه الأطباء مشاكل معينة فلو حيَّر الطبيب موت مريض فلا توجد إلا طريقة واحدة للتأكد وهي : التشريح، ولكن التشريح شيء لا ينظر أقارب الميت إليه بارتياح، ولكن إذا طالب الطبيب بالتشريح وأظهرت النتيجة، كما هو محتمل جدا، موتا طبيعيا، أو نتيجة لمرض لا تظهر علاماته فإن مستقبله يتأثر عند ذلك لأنه أخطأ في تشخيص المرض.

– بوسعي أن أرى أن الأمر كان صعبا. وأخبره الدكتور "**موري**" أنه اتصل بأقارب السيدة "**مودي**" ، وحصل منهم على الإذن بإجراء التشريح؛ لأنهم لم يهتموا كثيرا بالأمر فوُجد أن حالة قلبها جيدة جدا بالنسبة إلى سنها وأنها كانت تعاني قليلا من الروماتيزم والتهاب المفاصل كما كان الكبد يتعبها بين حين وآخر، ولكن لا يوجد بين هذه الأمراض ما يستدعي موتها وهي نائمة. وتوقف الطبيب عن الكلام وفتح "**تومي**" فمه ثم أغلقه مرة ثانية فأومأ الطبيب وقال :

– نعم يا سيد "**بيريسفورد**" ، إنك تعلم ما أرمي إليه . . لقد حدثت الوفاة نتيجة لتناول كمية كبيرة من "المورفين" . وذهل "**تومي**" وهتف بدون وعي :

– يا إلهي !

– نعم إن الأمر يبدو غير معقول، ولكن هذا هو واقع التحليل . . والسؤال هو :

كيف أُعطيَ لها "المورفين" ؟ إنها لم تكن تتناوله كعلاج، فهي لم تكن مريضة تتألم وكان هناك بالطبع ثلاثة احتمالات : قدتكون تناولته صدفة وهو أمر بعيد الاحتمال، وقد تكون أخذت دواء مريضة أخرى خطأ وهذا مرة أخرى أمر بعيد الاحتمال فلا يُترك مع المرضى كميات من "المورفين"، كما أننا لا نقبل مدمنات المخدرات اللاتي قد يكون لديهن كمية من هذه المخدرات في حوزتهن، وقد يكون انتحارا متعمدا ولكنني لا أقبل بسرعة هذا الافتراض؛ لأن السيدة "**مودي**" ولو أنها كانت ممن يقلقن إلا أنها كانت مرحة جدا، وأنا متأكد تماما أنها لم تفكر أبدا في إنهاء حياتها.. والاحتمال الثالث هو أن كمية "المورفين" أُعطيت لها عمدا ولكن ممن، ولماذا؟ وتوجد بالطبع كميات من "المورفين" وأدوية أخرى من حق الآنسة "**باكار**"، بوصفها ممرضة مستشفى قانونية ومديرة، أن تكون في حوزتها، وهي تحتفظ بها في دولاب مغلق بإحكام.. ففي بعض الأمراض يكون الألم شديدا بدرجة كبيرة ويُعطى المريض "المورفين" من حين إلى آخر لتخفيفه.. وكان أملنا أن تكون قد تصادفت ظروف أُعطيت فيها السيدة "**مودي**" كمية كبيرة من "المورفين" خطأ أو تناولتها هي، وهي تتوهم أنها علاج للأرق أو عسر الهضم.. ولكننا لم نستطع أن نجد أية ظروف يُحتمل أن يحدث في خلالها هذا الخطأ.. وكان الأمر التالي الذي فعلناه -بناء على اقتراح الآنسة "**باكار**" وقد وافقتها على ذلك -هو أننا فحصنا بدقة سجلات الذين ماتوا في "**سوني ريدج**" في العامين السابقين.. وأنا سعيد أن أقول إن العدد كان قليلا حوالي سبعة، وهو عدد معقول لمجموعة من الناس في هذه السن: اثنتان من التهاب رئوي وهو أمر عادي، اثنتان من الإنفلونزا وهو مرض محتمل أن يقتل في خلال أشهر الشتاء نظرا لضعف مقاومة السيدات المسنات، ثم ثلاث ميتات أخرى. وتوقف عند هذا الحد ثم قال:

– إني لست راضيا عن هذه الميتات الثلاث يا سيد "**بيريسفورد**" وبالتأكيد لست راضٍ عن ميتتين منها.. إنهما محتملتان، ولكن بوسعي أن أقول إن هذا الاحتمال بعيد.. إنهما ليستا حالتين أرضى عنهما تماما بعد تفكير وبحث، ويجب أن يتقبل المرء احتمالاً -مهما بدا هذا مستحيلا- بأن هناك قاتلاً في "**سوني ريدج**" ربما لاختلال في عقله، وهو قاتل لم يتطرق إليه الشك أبدا. ومرت لحظات صمت ثم تنهد "**تومي**" وقال:

– أنا لا أشك فيما قلته لي، ولكن مع ذلك فالأمر يبدو بصراحة غير مُصدَّق.. هذه الأمور.. إنها لا يمكن أن تحدث بالتأكيد. ولكن الدكتور "موري" أكد له أنها تحدث، ثم روى له عدة قصص تدل على إمكانية حدوثها، فهناك قصة الطباخة المصابة بجنون القتل وكانت تدس الزرنيخ في الطعام للناس دون سبب، ومر وقت طويل قبل أن تُكتشف حقيقتها؛ لأنها كانت تنتقل في أنحاء مختلفة من "إنجلترا".. ثم هناك السيدة الفرنسية التي كانت تُسمى ملاك الرحمة؛ لأنها كانت تتطوع بالاعتناء بالأطفال المرضى، ولكنهم كانوا جميعا يموتون واتضح بعد ذلك أنها كانت تقتلهم؛ لأن طفلتها ماتت.. وكانت أيضا مختلة العقل ولكن لا يبدو عليها ذلك، كما كانت هناك أيضا الممرضة "وربنر" التي كانت تدير بيتا للسيدات المسنات، وكانت تطلب منهن أن يكتبن لها ثروتهن مقابل إيوائهن مدى الحياة ثم تسُمهنَّ.

– أليس لديك فكرة، إذا كانت نظريتك عن هذه الميتات صحيحة عمَّن قد يكون الجاني؟

– كلا، فلا يوجد أي دليل، فلو نظرنا إلى الأمر على أن القاتل – على الأرجح– مجنون، فإن من الصعب جدا أن يتعرف المرء على بعض أنواع الجنون.. هل يكون هناك شخص يكره السيدات المسنات؟ أو شخص مسن؟ أو هل يمكن أن تكون واحدة لديها آراؤها الخاصة عن القتل الرحيم وتعتقد أن أي شخص تعدى سن الستين يجب أن يُقتل رحمة به.. قد يكون بالطبع أي شخص.. مريضة؟ أو أحد أعضاء هيئة التمريض ممرضة أو خادمة؟ لقد ناقشت هذا الموضوع طويلا مع "ميليسنت باكار" التي تدير البيت، وهي امرأة ذات كفاءة عالية ذكية وعملية تراقب عن قرب كلا من النزيلات والممرضات، وهي تصمم أنه ليس لديها أية شكوك أو أي دليل، وأنا متأكد أن هذا صحيح تماما.

– ولكن لماذا أتيت إليَّ؟ وماذا بوسعي أن أفعله؟

– إن خالتك الآنسة "فانشو" كانت نزيلة هناك لعدة سنوات، وكانت امرأة في كامل قواها العقلية، ولو أنها كانت كثيرا ما تتظاهر بغير ذلك.. وكانت لها طرق غير تقليدية لتسلية نفسها بأن تتظاهر بأنها مصابة بالشيخوخة، ولكنها في الحقيقة كانت حاضرة الذهن تماما. إن الذي أريد أن تحاوله يا سيد "بيريسفورد" هو أن تتذكر جيدا،

أنت وزوجتك، لو كان هناك أي شيء تستطيع أن تتذكره مما قد تكون الآنسة "**فانشو**" قد قالته أو لمَّحت به مما قد يساعدنا، أي شيء تكون قد لاحظته أو رأيته، أو أي أمر يكون قد أخبرها به شخص ما، أمر قد يكون فكرت هي أنه عجيب، فإن السيدات المسنات يرين ويلاحظن الكثير، وسيدة ذكية مثل الآنسة "**فانشو**" كانت تعرف بالتأكيد قدرا مدهشا مما كان يجري في مكان مثل "**سوني ريدج**"، فإن هؤلاء السيدات المسنات لسن مشغولات ولديهن كل الوقت لينظرن حولهن ويستنتجن، ويصلن إلى نتائج قد تبدو خيالية، ولكنها في بعض الأحيان قد تكون صحيحة بشكل مذهل. وهز "**تومي**" رأسه وقال:

– أنا أعرف ما تعنيه، ولكن ليس في وسعي أن أتذكر أي شيء من هذا القبيل. ربما فيما بعد.

– فهمت أن زوجتك ليست في المنزل، فهل تعتقد أنها قد تتذكر شيئا لم تلاحظه أنت؟

– سأسألها، ولكني أشك في ذلك، وتردد ثم حزم رأيه وقال:

– هناك شيء كان يقلق زوجتي.. شيء يتعلق بإحدى السيدات المسنات وهي تدعى السيدة "**لنكستر**".

– السيدة "**لنكستر**"؟ نعم؟

– إن زوجتي مقتنعة بأن السيدة "**لنكستر**" أُخرجت من البيت بمعرفة من يدَّعون أنهم أقاربها فجأة، والواقع أن السيدة "**لنكستر**" أهدت صورة لخالتي وشعرت زوجتي أنه يجب أن تعرض إعادة الصورة إلى السيدة "**لنكستر**"؛ ولذلك حاولت أن تتصل بها لتعرف إن كانت السيدة "**لنكستر**" ترغب في استرداد الصورة.

– حسنا إن هذا جميل من جانب السيدة "**بيريسفورد**" بالتأكيد.

– ولكنها وجدت صعوبة شديدة في الاتصال بها، وقد حصلت على عنوان للفندق الذي كان مفروضا أن ينزلوا به –أعني "**لنكستر**" وأقاربها– ولكن لم ينزل بهذا الفندق أي منهم ولم تحجز به أي غرف بأسمائهم.

– أوه! إن هذا أمرٌ غريبٌ.

– نعم.. هذا كان رأي "**توبنس**" أيضا فهم لم يتركوا أي عنوان آخر في "**سوني**

ريدج " لتحول إليهم فيه خطاباتها، وفي الواقع إننا أجرينا عدة محاولات للاتصال بالسيدة "**لنكستر**" أو هذه السيدة "**جونستون**"، ولكن لم نستطع الاتصال بهما بالمرة، وكان هناك محام يقوم بدفع الفواتير وهو الذي قام بكل الترتيبات مع الآنسة "**باكار**" وقد اتصلنا به، ولكنه لم يستطع إلا أن يعطيني عنوانا على بنك وأضاف "**تومي**" بجفاء:

– والبنوك لا تعطي أية معلومات.

– إنها لا تعطي معلومات إذا كانت لديها تعليمات بذلك.

– لقد أرسلت زوجتي خطابا إلى السيدة "**لنكستر**" عن طريق البنك وكذلك خطابا إلى السيدة "**جونستون**"، ولكنها لم تتلق أيَّ رد أبدا.

– هذا يبدو غير عادي، ومع ذلك فالناس لا ترد دائما على الخطابات، ولعلهما سافرتا إلى الخارج.

– تماما.. إن هذا الأمر لم يقلقني، ولكنه أقلق زوجتي وهي تبدو مقتنعة أن شيئا ما حدث للسيدة "**لنكستر**"، وقد قالت في الواقع إنها ستتحري الأمر في أثناء غيابي عن منزلي، وأنا لا أعرف بالضبط ماذا كانت تنوي أن تفعله، فربما كانت تنوي أن تذهب إلى الفندق أو البنك أو ربما ذهبت لمقابلة المحامي.. على أي حال كانت ستحاول أن تحصل على معلومات أكثر. ونظر إليه الدكتور "**موري**" بأدب، ولكن ببعض الملل وقال:

– ماذا كان رأيها بالتحديد؟

– إنها تعتقد أن السيدة "**لنكستر**" في خطر ما.. بل تعتقد أنه ربما حدث لها شيء. ورفع الطبيب حاجبيه:

– أحقًا؟ أنا لا أظن.

– قد يبدو هذا سخيفا، ولكن زوجتي اتصلت تليفونيا وقالت إنها ستعود إلى البيت مساء أمس.. ولكنها لم تعد.

– هل قالت بصفة قاطعة إنها ستعود؟

– نعم، إنها كانت تعرف أني سأعود إلى البيت بعد مؤتمرها، وهكذا اتصلت لتخبر خادمنا "**ألبرت**" أنها ستعود على العشاء. وقال "**موري**" وهو يتطلع لـ"**تومي**" ببعض الاهتمام:

– وهذا يبدو لك تصرفا غريبا منها؟

– نعم.. فهذا ليس من طباعها فلو كانت قد تأخرت أو غيرت خططها لكانت قد اتصلت مرة أخرى أو أرسلت تلغرافا.

– هل أخذت مشورة البوليس؟

– كلا فماذا سيظن البوليس؟ فليس لدي أي سبب يجعلني أعتقد أنها واقعة في مشكلة أو في خطر أو أي شيء من هذا القبيل.. أعني أنه لو كان قد وقع لها حادث أو كانت في مستشفى أو أي شيء من هذا القبيل لاتصل بي شخصٌ ما في الحال، أليس كذلك؟

– أعتقد ذلك.. نعم.. لو كانت معها أية أوراق تثبت شخصيتها.

– كانت معها رخصة قيادتها وعلى الأرجح خطابات وأشياء أخرى مختلفة.

وعبس الدكتور "**موري**" .. ومضى "**تومي**" يقول بسرعة:

– والآن تأتي أنت، وتجيئني بكل هذه الحوادث في "**سوني ريدج**" .. أناس ماتوا بينما لم يكن هناك سبب لذلك.. لنفرض أن هذه السيدة العجوز علمت بشيء.. رأت شيئا أو شكَّت في شيء.. ثم بدأت تثرثر عنه.. فيجب أن تسكت بطريقة أو أخرى، وهكذا أُبعدت بسرعة من المكان وأُخذت إلى مكان ما لا يستطيع أحد أن يتتبعها إليه.. إني لا أتمالك نفسي من الشعور بأن الأمر كله مرتبط.

– إنه أمر عجيب.. إنه بالتأكيد غريب.. ما الذي تنوي أن تفعله بعد ذلك؟

– سأبحث أنا الآخر، سأجرِّب المحامين أولا فقد يكونان بدون شائبة، ولكني أود أن ألقي نظرة عليها وأكوِّن استنتاجاتي الخاصة.

❖❖❖❖❖

الفصل الحادي عشر

وقف "**تومي**" يفحص، من الرصيف المقابل، مكتب السادة المحامين بـ"**رتندجيل هاريس**" و"**لوكريدج**" ، ثم عبر الطريق ومر من الباب ليُقابل بصوت الآلات الكاتبة على أقصى سرعتها، وتوجه إلى مكتب "الاستعلامات" وطلب مقابلة السيد "**إيكولز**"

وذكر اسمه بعد أن قال لهم إنه سبق أن تراسل معه ويريد مقابلته لأمر مهم. وبعد قليل أُدخل إلى غرفة السيد "**إيكولز**" الذي نهض من خلف مكتبه ليحييه ووجد "**تومي**" نفسه – دون أي سبب– لا يرتاح إليه، ودُهش "**تومي**" من ذلك فلم يبد أن هناك سببا معقولا لذلك. وقال "**تومي**" :

– إنه في الواقع موضوع تافه، ولكنه يقلق زوجتي وقد كاتبتك على ما أعتقد أو ربما تكون قد اتصلت بك تليفونيا، لتعرف إن كان بوسعك أن تزودها بعنوان السيدة "**لنكستر**" . فأجاب السيد "**إيكولز**" :

– السيدة "**لنكستر**" .. ولم يظهر أي تعبير على وجه السيد "**إيكولز**" ولم يوجِّه حتى سؤالا، وإنما فقط ترك الاسم معلقا في الهواء. وفكر "**تومي**" : «رجل حذر، ولكن هذه هي طبيعة المحامين والمرء في الواقع يفضل أن يكون محاميه حذرا» ومضى "**تومي**" يقول:

– كانت تقيم حتى عهد قريب في بيت من طراز ممتاز للسيدات المسنات يدعى "**سوني ريدج**" . وفي الواقع كانت خالتي تقيم فيه وكانت في غاية السعادة والراحة هناك.

– آه.. نعم.. بالطبع.. بالطبع. إني أتذكر الآن.. السيدة "**لنكستر**" .. أعتقد أنها لم تعد تقيم هناك؟ هذا صحيح أليس كذلك؟ قال "**تومي**" :

– نعم.

– لا أستطيع أن أتذكر الأمر في الحال. (ومد يده نحو التليفون) سأساعد ذاكرتي في الحال. فقال "**تومي**" :

– في وسعي أن أروي لك الأمر ببساطة.. أرادت زوجتي الحصول على عنوان السيدة "**لنكستر**" ؛ لأن معها شيئا كان أصلا ملكا للسيدة "**لنكستر**" ، وهو في الواقع صورة أهدتها لخالتي آنسة "**فانشو**" وقد ماتت خالتي أخيرا وورثنا ممتلكاتها القليلة، وكان من بينها تلك الصورة التي أُعجبت بها زوجتي، ولكنها تشعر بالذنب؛ لأنها تعتقد أنها ربما صورة تحبها السيدة "**لنكستر**" ، وفي هذه الحالة تشعر بأنها يجب أن تعرض إعادتها إليها. قال السيد "**إيكولز**" :

– آه، فهمت.. إن هذا منتهى الأمانة من جانب زوجتك.. وقال له "**تومي**" :

– إن المرء لا يعرف أبدا شعور المسنين إزاء ممتلكاتهم، وإن الصورة تمثل منزلا في الريف، ربما يكون منزلا عائليا له علاقة بالسيدة "**لنكستر**". وسمع طرقا ثم فتح الباب ودخل كاتب ومعه ورقة وضعها أمام السيد "**إيكولز**" ونظر إليها المحامى ثم قال:

– آه نعم.. آه نعم.. إني أتذكر الآن.. نعم إني أعتقد أن السيدة "**بيريسفورد**" اتصلت تليفونيا وتبادلت معي حديثا قصيرا، وقد أشرت عليها بالاتصال ببنك "**همر سميث**" وهو العنوان الوحيد الذي أعرفه. إن الخطابات المرسلة إلى البنك باسم السيدة "**ريتشارد جونستون**" ترسل إلى السيدة "**لنكستر**"، والسيدة "**جونستون**"، على ما أعتقد، ابنة أخت أو قريبة للسيدة "**لنكستر**" وهي التي قامت بكل الترتيبات معي من أجل السيدة "**لنكستر**" في "**سوني ريدج**"، وقد طلبت مني أن أستعلم عن هذا المكان استعلاما كاملا؛ لأنها سمعت عنه فقط من صديقة، وبوسعي أن أبين أننا فعلنا هذا بمنتهى العناية، وقد قيل لنا إنه بيت ممتاز وأعتقد أن السيدة "**لنكستر**" أمضت به عدة سنوات في منتهى السعادة.

– ومع ذلك فقد غادرته فجأة.

– نعم.. نعم.. أعتقد أنها فعلت ذلك، فيبدو أن السيدة "**جونستون**" عادت على غير انتظار من "**إفريقيا الشرقية**" منذ وقت قريب، وقد كانت هي وزوجها يقيمان منذ عدة سنوات في "**كينيا**".. وكانا يقومان بترتيبات جديدة كثيرة ومختلفة، وهما يشعران أن بوسعهما الاعتناء شخصيا بقريبتهما المسنة، وأخشى أني لا أعرف مكان السيدة "**جونستون**" الحالي، وقد تلقيت منها رسالة تشكرني فيها وتدفع بها مبلغا كانت مدينة لنا به، وأخبرتني في هذه الرسالة أنه لو كان هناك أي حاجة للاتصال بها فيجب أن أرسل خطاباتي إلى البنك بما أنها لم تقرر بعد أين ستقيم هي وزوجها.. وأخشى يا سيد "**بيريسفورد**" أن هذا هو كل ما أعرفه. وكانت طريقته في الكلام لطيفة ولكنها أيضا حازمة، ولم يكن بها أي نوع من الاضطراب كما كان يضع بكلماته نهاية للمقابلة. وخرج "**تومي**" إلى شارع "**بلومسبري**" ونظر حوله بحثا عن تاكسي فقد كانت اللفافة التي بها الصورة كبيرة الحجم، ونظر خلفه إلى المبنى الذي تركه لقد كان مبنى محترما لا تبدو عليه أية شائبة، ومع ذلك فلم يملك "**تومي**" إلا أن يشعر بعدم الارتياح، وكان يعرف من تجاربه أن شعوره قلّما يخونه. ومر تاكسيٌ

في هذه اللحظة فأشار له "تومي" ولكن السائق تجاهله، وراح يتطلع إلى جانبي الشارع باحثا عن تاكسي آخر أكثر أدبا، وكان عدد من الناس يمشون على الرصيف وقلة منهم يمشون بسرعة، وبعضهم يتمشى على مهل، وكان هناك رجل ينظر إلى لافتة نحاسية في الناحية الأخرى من الطريق وبعد أن فحصها بإمعان استدار، وفتح "تومي" عينيه دهشة فقد كان يعرف هذا الوجه، وراقب الرجل وهو يمشي إلى نهاية الشارع ويتوقف ثم يستدير ويعود مرة أخرى، وخرج شخص ما من المبنى الذي خلف "تومي" وفي هذه اللحظة أسرع الرجل الذي على الرصيف الآخر قليلا في خطواته بحيث كان يمشي موازيا للرجل الذي خرج من الباب الواقع خلف "تومي"، وكان هذا الرجل هو السيد "إيكولز" أو هكذا خيل لـ"تومي". وفي نفس هذه اللحظة مرت سيارة أجرة على مهل بطريقة مغرية فرفع "تومي" يده وتوقف التاكسي ففتح الباب ودخل.

– إلى أين؟ وتردد "تومي" لحظة وهو ينظر إلى اللفافة، وكان على وشك أن ينطق بعنوان ثم غير رأيه وقال:

– رقم أربعة عشر شارع "ليون". ووصل إلى بغيته بعد ربع ساعة، وبعد أن دفع الأجرة دق جرس الباب وطلب السيد "إيفور سميث"، وعندما دخل غرفة في الطابق الثاني، استدار رجل كان يجلس أمام منضدة تواجه النافذة وقال ببعض الدهشة:

– مرحبا "تومي"! من الغريب أن أراك بعد كل هذه المدة. ما الذي تفعله هنا؟ هل تمر فقط على أصدقائك القدماء؟

– ليس الأمر بهذه البساطة يا "إيفور".

– أظن أنك في طريق عودتك لبيتك بعد المؤتمر؟

– نعم.

– أظن أنه اللغو المعتاد؟ لا نتائج ولا أي شيء فيه نفع.

– تماما. كله مجرد إضاعة للوقت.

– أظن أنكم كنتم تستمعون أغلب الوقت لـ"بوجي" و"أدوك" العجوز وهو يتحدث حديثا فارغا. إنه ممل جدا ويزداد سوءاً سنة بعد سنة. وجلس "تومي" على المقعد الذي دُفع نحوه وأشعل سيجارة ثم قال:

– كنت فقط أتساءل.. إنه مجرد تخمين.. إذا كنت تعرف أيٌ شيءٍ مشين عن

محام اسمه "**إيكولز**" من مكتب السادة "**برتندجيل هاريس**" و"**لوكريدج**". وقال "**إيفور سميث**" وهو يرفع رموشه:

– إحم.. إحم.. هل احتككت به في مكان ما؟ قال "**تومي**":

– إن المشكل هو أني لا أعرف شيئا عنه؟

– أتريد أن تعرف عنه شيئا؟

– نعم.

– إحم.. وما الذي جعلك تاتي لزيارتي أنا؟

– رأيت "**أندرسون**" في الخارج وقد مر وقت طويل منذ رأيته آخر مرة ولكني تعرًفته، وكان يراقب شخصا ما، وهذا الشخص كان من المبنى الذي خرجت منه ويوجد في هذا المبنى مكتب محامين كما يوجد مكتب محاسبين، وبالطبع قد يكون أي واحد منهم أو من موظفيهم، ولكن الرجل الذي مشى في الشارع بدا لي أنه "**إيكولز**" وتساءلت إن كان من حسن الحظ هو الذي يتتبعه "**أندرسون**"؟ غَضًب "**إيفور سميث**":

– إحم.. حسنا يا "**تومي**" لقد كنت دائما تحسن التخمين.

– من هو "**إيكولز**"؟

– ألا تعرف؟ أليست لديك أية فكرة؟

– ليست لدي أية فكرة بالمرة، ودون أن أطيل عليك الموضوع هو أني ذهبت إليه لأستعلم منه عن سيدة عجوز تركت أخيرا بيتًا للسيدات المسنات، وكان المحامي الذي استُخدم لعمل كل الترتيبات لها هو السيد "**إيكولز**"، ويبدو أنه قام بالمهمة بمنتهى الكفاءة وحسب الأصول، وقد كنت أريد عنوانها الحالي وهو يقول إنه ليس لديه وهذا جائز جدا.. ولكني تساءلت فإنه الدليل الوحيد لديّ عن مكانها.

– وأنت تريد أن تعثر عليها؟

– نعم.

– لا أعتقد أني سأفيدك كثيرًا، فإن "**إيكولز**" محامي محترم جدا، وله دخل كبير ولديه عملاء محترمون جدا، فهو يتعامل مع أصحاب الأراضي والمهنيين والضباط العظام المتقاعدين، وهو يمثل قمة الاحترام، وأظن مما ذكرته لي أنه كان يتصرف في

حدوده القانونية.

– ولكنك مهتم به.

– نعم، نحن مهتمون بالسيد "**جيمس إيكولز**" وتنهد: نحن مهتمون به منذ ستة أعوام على الأقل ولم نتقدم كثيرا.

– أمر شائق جدا. سأسألك مرة أخرى.. من هو السيد "**إيكولز**" بالضبط؟

– أتعني أننا نشك فيه؟ حسنا، إننا نشك، باختصار إنه أحد أفضل مدبري النشاط الإجرامي في هذه البلاد.

– نشاط إجرامي؟ وبدت الدهشة على "**تومي**".

– نعم نعم. ليس نشاطا جنائيا ولا جاسوسيا كلا.. مجرد نشاط إجرامي. إنه رجل لم يرتكب على قدر ما استطعنا اكتشافه أية جريمة في حياته، فهو لم يسرق شيئا ولم يزوِّر ولم يختلس، ولم نتمكن من الحصول على أي دليل ضده.. ولكن مع ذلك أينما توجد جريمة سرقة كبيرة منظمة، تجد في المؤخرة السيد "**إيكولز**" يعيش حياة دون شائبة. وقال "**تومي**" مفكرا:

– ستة أعوام.

– ربما أطول من ذلك، فقد مر وقت قبل أن نتعرَّف نمط السرقات: سرقة بنوك بالإكراه، سرقة مجوهرات خاصة. كل أنواع السرقات التي تحتوي على أموال كبيرة، وهي جميعا تتبع مخططا واحدا، ولا يمكنك إلا أن تشعر أن عقلا واحدا هو المدبر، والناس الذين نفذوا الخطط لم يكن لهم أي شأن بالتخطيط، وإنما قاموا فقط بما أُمروا به، وكان شخص آخر هو الذي يتولى التدبير والتفكير.

– وما الذي جعلكم تفكرون في "**إيكولز**"؟ وهز "**إيفور**" رأسه وقال:

– إن هذا سيطول شرحه، إنه رجل له أصدقاء ومعارف كثيرون، فهناك من يلعب معهم الجولف وهناك من يعتنون بسيارته، وهناك مكاتب سماسرة بورصة يقومون بأعماله المالية، كما أن هناك شركات تقوم بأعمال كثيرة لا شائبة عليها وله فيها مصالح. إن الخطة بدأت تتضح، ولكن دوره فيها ليس واضحا فيما عدا أنه يتغيب بطريقة ملحوظة في مناسبات معينة، فحين تحدث سرقة بنك كبيرة دُبرت بمهارة (ولاحظ أنه لا يوجد تقتير في النفقات) بحيث يضمن هروب اللصوص.. أين يكون

السيد "**إيكولز**"؟ إما في "**مونت كارلو**" أو "**زيوريخ**" أو قد يكون حتى في "**النرويج**" يصطاد سمك السلمون، ولكن بوسعك أن تتأكد تماما أن السيد "**إيكولز**" لا يكون أبدا في دائرة قطرها 160 كيلومتراً من مكان حدوث الجريمة.

– ومع ذلك تشكون فيه؟

– آه نعم، وأنا متأكد تماما من ذلك، ولكني لا أعرف إن كنا سنمسك به أبدا، فإن الرجل الذي حفر تحت أرضية البنك.. والرجل الذي ضرب الحارس الليلي والصراف المتواطئ ومدير البنك الذي أدلى بالمعلومات، لم يكن أي أحد منهم ليعرف "**إيكولز**"، ولم يره على الأرجح أي أحد.. إنها سلسلة طويلة.. ولا يبدو أن أي واحد يعرف أكثر من حلقة واحدة بعده.

– طريقة الخلايا القديمة؟

– تقريبا، ولكن هناك بعض التعديلات الماهرة، وستحين لنا فرصة في يوم ما فيعرف شخص – لم يكن من المفروض أن يعرف أي شيء– شيئا ما.. شيئا ربما كان تافها وبدون أهمية، ولكنه قد يصبح فيما بعد دليل إدانة.

– هل هو متزوج؟ هل لديه أسرة؟

– كلا، إنه لم يجازف أبدا بأمر كهذا، فإنه يعيش وحيدا مع مدبرة منزل وبستاني وخادم، وهو يقيم مآدب هادئة ولطيفة، وأقسم أن كل من دخل بيته كضيف لا يتطرق إليه شك.

– هل ظهر الثراء على أحد؟

– هذه النقطة التي وضعت أصبعك عليها نقطة جيدة يا "**توماس**" فقد كان يجب أن يُثرى شخص ما، ولكن هذا الجزء مدبر بمهارة فائقة: مكاسب كبيرة في السباق، استثمارات مثمرة في الأوراق المالية، وكلها أمور طبيعية ويلعب فيها الحظ دوره بحيث من الممكن أن تدر مكاسب كبيرة، وتبدو كلها معاملات حقيقية، وهناك أموال كثيرة موضوعة في الخارج في أماكن مختلفة وفي بلدان مختلفة.. إنها عمليات مالية ضخمة والأموال تتحرك دائما من مكان لآخر.

– حسنا، أتمنى لك حظا سعيدا وأرجو أن تصل إلى ما تريده.

– أعتقد أني سأفعل ذلك في أحد الأيام، فقد يكون هناك أمل إذا استطاع المرء أن

يخرجه عن روتينه عنوة.

– وبماذا تحقق ذلك؟

– بالخطر.. بأن أجعله يشعر بأنه في خطر، وأن هناك من يوشك أن يمسك به فيقلق، ومتى استطعت أن تجعل الشخص يقلق، فقد يقوم بعمل سخيف وقد يخطئ، وهذه كما تعرف هي الطريقة التي تمسك الناس بها، فإن أذكى الرجال الذي يستطيع أن يخطط بمهارة ولا يخطئ أبدا سيخطئ إذا ضايقه أمر صعب، ولذلك فلديّ أمل.. والآن لنسمع روايتك، فقد تكون تعرف شيئا مفيدا.

– أخشى أنه أمر تافه، لا علاقة له بالجريمة.

– لنسمعها. وروى "**تومي**" روايته بدون أن يعتذر أكثر من هذا عن تفاهتها، فإنه كان يعلم إن "**إيفور**" ليس بالرجل الذي يحتقر التفاهات، وفي الواقع أمسك "**إيفور**" في الحال بالنقطة التي جعلت "**تومي**" يأتي:

– أتقول إن زوجتك اختفت..؟

– وهو أمر ليس من طباعها.

– هذا أمر جاد.

– إنه لكذلك بالنسبة إليّ.

– بوسعي أن أتصور ذلك.. إني قابلت زوجتك مرة واحدة فقط.. إنها ذكية. لو تتبعت أثرا فإنها تكون مثل كلب صيد.

– ألم تذهب للبوليس؟

– كلا.

– ولم لا؟

– حسنا.. إني أولا لا يمكن أن أعتقد أنه قد أصابها سوء، فـ"**توبنس**" دائما بخير وهي فقط تتبع أي أرنب يظهر نفسه، وقد لا يكون لديها وقت للاتصال.

– إني لست مرتاحا كثيرا لذلك.. أتقول إنها تبحث عن منزل؟ إن هذا قد يكون مهما؛ لأن من ضمن الخيوط المختلفة التي نتتبعها، والتي لم تؤد –على فكرة– إلى شيء يذكر، يوجد أثر يشير إلى سماسرة منازل.

– سماسرة منازل؟ وبدت الدهشة على "**تومي**".

– نعم، سماسرة منازل عاديون، في مدن ريفية صغيرة، في أنحاء مختلفة من "**إنجلترا**"، ولكنهم جميعا ليسوا بعيدين عن "**لندن**" ومكتب السيد "**إيكولز**" يقوم بأعمال كثيرة مع سماسرة المنازل ومن أجلهم، وهو أحيانا محامي المشترين وأحيانا محامي الباعة، وهو يتعامل مع عدة سماسرة مختلفين نيابة عن عملائه، ونحن نتساءل أحيانا لماذا يفعل هذا؟ فإنه لا توجد مكاسب تذكر في هذه العمليات.

– ولكنك تعتقد أن هذا قد يعني شيئا أو قد يقود إلى شيء؟

– حسنا.. كان هناك منزل في الريف.. منزل منعزل، وكان هذا هو مكان لقاء لصوص السرقة الكبيرة لبنك "**لندن**" الجنوبي التي حدثت منذ عدة سنوات –إن كنت تتذكرها– ولم يكونوا ملحوظين جدا هناك، ولكنهم أتوا بالمسروقات وخبأوها هناك. وبدأ الناس في الجيرة يروون عنهم روايات، ويتساءلون من هم هؤلاء الناس الذين يجيئون ويذهبون في أوقات غير عادية، فقد كانت هناك سيارات مختلفة تصل في منتصف الليل ثم ترحل، والناس في الريف ينظرون إلى حركات جيرانهم بفضول، وتبعا لذلك أغار البوليس على المنزل، ووجد بعض المسروقات كما قبضوا على ثلاثة رجال بينهم واحد تم التعرف عليه.

– ألم يقدكم هذا إلى أشياء أخرى؟

– ليس تماما، فإن الرجال لم يتكلموا، وتولى الدفاع عنهم محامون قديرون، وحُكم عليهم بالسجن مددا طويلة، وفي خلال سنة ونصف أُخْرِجُوا جميعا من السجن بعمليات هروب ماهرة جدا.

– أعتقد أني أتذكر أني قرأت عن هذا، فقد اختفى رجل من محكمة بينما كان يسير فيها بين حارسين.

– هذا صحيح.. لقد دُبر الأمر كله بمهارة فائقة، وصُرفت أموال طائلة على عملية الهروب، ولكننا نعتقد أن المسؤول عن التخطيط أدرك أنه ارتكب خطأ؛ لأنه احتفظ بالمسروقات في منزل واحد لمدة طويلة من الزمن لدرجة أن الناس المحليين أُثير فضولهم، وربما فكر شخص ما أن الفكرة الأفضل هي أن يجعل أفراد عصابته يقيمون في ثلاثين منزل في أماكن مختلفة.. ويأتي أناس ويشترون منزلا، لنقل أم وابنتها أو أرملة أو ضابط متقاعد وزوجته.. أناس هادئون لطاف ويجرون بعض الإصلاحات للمنزل،

ويأتون بمقاول محلي ويحسنون السمكرة، وربما يأتون بشركة من "لندن" للديكور، وبعد سنة أو سنة ونصف تتغير الظروف ويبيعون المنزل ويذهبون للإقامة في الخارج، شيء من هذا القبيل، وكله أمر طبيعي ولطيف، وربما يستعمل المنزل في أغراض أخرى خلال هذه المدة! ولكن لا يشك أحد في الأمر، ويأتي أصدقاء لزيارتهم ولكن ليس كثيراً وإنما أحياناً، ويقيمون في ليلة ما حفلة عيد زواج لزوجين متوسطي العمر أو متقدمي العمر أو يقيمون حفلة بلوغ سن الرشد لشاب أو شابة وتجيء وتذهب سيارات كثيرة، ولنقل أنه تحدث خمس سرقات كبرى في خلال ستة أشهر، ولكن في كل مرة تنتقل المسروقات أو تُخبأ ليس فقط في منزل واحد، ولكن في خمسة منازل في خمسة أجزاء مختلفة في الريف، وهذا ما زال مجرد افتراض يا عزيزي "تومي" ولكننا نعمل على هذا الأساس، فلنفترض أن سيدتك العجوز تركت صورة لمنزل معين تخرج من حوزتها، ولنفرض أن هذا المنزل له معنى معين، ولنفرض أنه نفس المنزل الذي تعرَّفته زوجتك في مكان ما، وأنها هرعت تتحرى الأمر، ولنفرض أنه هناك من لا يريد أن يتحرى أحد عن هذا المنزل.. قد يكون لهذا صلة بالموضوع.

– إنه احتمال بعيد.

– نعم، إني أوافقك على هذا ولكننا نعيش في زمن الاحتمالات البعيدة التي تحدث فيها أمور لا تُصدق.

❖❖❖❖❖

نزل "تومي" وهو متعب قليلا من رابع تاكسي استقله هذا اليوم، وتطلع حوله، وكان التاكسي قد أنزله في طريق صغير مسدود كانت المنازل فيه يختلف كل واحد منها عن الآخر، وكان هذا المنزل يبدو أنه يتكون من استوديو كبير به سقف زجاجي يدخل الضوء وملصق به على ناحية ثلاث غرف، وكان هناك سلم مدهون باللون الأخضر الزاهي من خارج المنزل، وفتح "تومي" البوابة الصغيرة ودخل في الممر وعندما لم يجد جرسا دق على الباب بالمطرقة، وعندما لم يتلق ردا طرق مرة أخرى بصوت أعلى. وفُتح الباب فجاة حتى أنه كاد أن يقع إلى الخلف ووقفت امرأة على عتبة الباب، وكان أول انطباع لـ"تومي" هو أنها واحدة من أقبح النساء اللاتي رآهن فقد

واجه وجها عريضا مفلطحا وعينين كبيرتين من لونين مختلفين، فإحداهما خضراء والثانية بنية وجبهة عريضة وكمية من الشعر المنكوش، وكانت ترتدي معطفا قرمزيا فوق ثياب عليها بقع من الصلصال، ولاحظ "**تومي**" أن اليد التي تمسك بالباب المفتوح كانت يدا جميلة جدا. وقالت بصوت عميق وجذاب :

– آه ما الأمر؟ أنا مشغولة.

– السيدة "**بوسقوان**" ؟

– نعم، ما الذي تريده؟

– إن اسمي " **بيريسفورد**" ، وإني أتساءل إن كنت تسمحين لي بالحديث معك لبضع دقائق.

– لا أعرف.. فهل هذا ضروري؟ ما الأمر.. شيء يتعلق بصورة؟ وكانت عينها قد لمحت اللفة التي تحت ذراعه.

– نعم، إنه أمر يخص إحدى صور زوجك.

– هل تريد بيعها؟ إن عندي الكثير من رسوماته ولا أرغب في شراء صور أخرى. خذها إلى أحد المعارض فإنهم بدؤوا يشترون صوره من جديد الآن.. إنك لا تبدو كما لو كنت بحاجة إلى بيع صور.

– كلا، فإني لا أريد أن أبيع أي شيء. وكان "**تومي**" يشعر بصعوبة في التحدث مع هذه المرأة، وكانت عيناها ولو أنهما تختلفان في اللون إلا أنهما بديعتان وكانتا تنظران الآن من فوق كتفه إلى الشارع كمن يجد اهتماما بشيء بعيد.

– أرجوك أن تدعيني أدخل فمن الصعب شرح الأمر. فقالت السيدة "**بوسقوان**" :

– لو كنت رساما فأنا لا أريد أن أتحدث إليك، فأنا أجد الرسامين مملين جدا.

– إنني لست رساما.

– إنك لا تبدو كرسام بالتأكيد (وفحصته من فوق إلى تحت) إنك تبدو أقرب إلى موظف حكومي، وقالت هذه الجملة بامتعاض.

– هل بوسعي أن أدخل يا سيدة "**بوسقوان**" ؟

– لست متأكدة.. انتظر. وأغلقت الباب فجأة، وانتظر "**تومي**" وبعد حوالي أربع دقائق فتحت الباب مرة أخرى، وسمحت له بالدخول وقادته من خلال عتبة الباب

وصعدا سلما ضيقا يؤدي إلى الاستديو الواسع. وكان يوجد في زاوية منه تمثال وأدوات كثيرة بجانبه: مطارق وأزاميل وصلصال كما كانت هناك أيضا رأس من الصلصال، وكان المكان كله يبدو كما لو كان قد داهمته عصابة من المجرمين المراهقين.

وقالت السيدة "**بوسقوان**" :

– لا يوجد أبدا أي مكان هنا للجلوس. وقذفت بعدة أشياء مختلفة كانت على كرسي خشبي ودفعته نحوه وقالت:

– هاك.. اجلس هنا وتكلم معي.

– إنه كرم منك أنك سمحت لي بالدخول.

– هو كذلك في الواقع، ولكنك تبدو قلقا جدا. إنك قلق أليس كذلك؟

– نعم.

– هذا ما اعتقدته. ما الذي يقلقك؟ ولدهشته وجد "**تومي**" نفسه يجاوب بقوله:

– زوجتي.

– أوه.. هل أنت قلق على زوجتك؟ حسنا لا يوجد شيء غير عادي في هذا، فإن الرجال في العادة دائما يقلقون على زوجاتهم.. ما الموضوع.. هل هربت مع شخص آخر أو تخونك؟

– كلا لا شيء من هذا القبيل.

– هل هي تحتضر؟ سرطان؟

– كلا، إنما فقط لا أعرف أين هي.

– وتعتقد أنني قد أعرف؟ حسنا من الأفضل أن تقول لي اسمها وشيئا عنها لو كنت تعتقد أن بوسعي أن أجدها لك، ولو أني غير متأكدة أني راغبة في ذلك.. إني أحذرك من هذا.

– حمدا لله، إن التحدث معك أسهل مما كنت أظن.

– ما صلة الصورة بالموضوع؟ إنها صورة أليس كذلك؟ فبهذا الحجم لابد أن تكون صورة. وفك "**تومي**" اللفة وقال:

– إنها صورة ممضاة من زوجك، وأنا أريد منك أن تخبريني كل ما تعرفينه عنها.

– فهمت . . ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط؟

– متى وأين رُسمت؟ ونظرت السيدة "**بوسقوان**" إليه لأول مرة ببعض الاهتمام في عينيها وقالت:

– حسنا، هذا ليس صعبا . . نعم فبوسعي أن أخبرك بكل شيء عنها . . لقد رسمت منذ حوالي خمسة عشر عاما . . كلا أعتقد أنها من مدة أطول من هذا . . إنها إحدى رسوماته الأولى . . أعتقد أن تاريخها يرجع إلى عشرين عاما.

– هل تعرفين المكان الذي رسمت فيه؟

– نعم، بوسعي أن أتذكر هذا جيدا جداً فإنها صورة جيدة كنت أحبها دائما، وهذه هي القنطرة المقوَّسة والمنزل، واسم المكان هو "**سوتون شنسلور**" على بعد حوالي اثني عشر كيلومترا من "**مركيت باسنج**" والمنزل نفسه يبعد حوالي ثلاثة كيلومترات من "**سوتون شنسلور**" وهو مكان جميل ومنعزل، واقتربت من الصورة وانحنت وفحصتها عن قرب، وقالت:

– هذا غريب . . نعم هذا غريب جدا . . إني في دهشة . ولم يعرها "**تومي**" انتباها . وسأل:

– ما اسم هذا المنزل؟ فأخبرته أنه كان يسمى "**ريفرسيد**" أو "**وترسيد**" . وسأل:

– من كان يقيم هناك أو من يقيم هناك الآن؟ هل تعرفين؟

– لا أعرف، وكان هناك رجل وفتاة يعيشان هناك في أول مرة رأيت فيها المنزل، وكانا يأتيان عادة في نهاية الأسبوع، وأعتقد أنهما لم يكونا متزوجين، وكانت الفتاة راقصة باليه جميلة ولكنها غبية وكان "**ويليام**" معجبا بها كما أتذكر.

– هل رسمها؟

– كلا لم يكن ليرسم الناس كثيرا، وكان يقول أحيانا إنه يريد أن يرسم الناس ولكنه لم يكن يفعل شيئا إزاء ذلك، وكان دائما يعجب بالفتيات بسخافة.

– هل هما اللذان كانا يقيمان في المنزل عندما كان زوجك يرسمه؟ وأجابته بالإيجاب، ثم قالت إنهما تشاجرا بعد ذلك وتركا المنزل، ثم جاءت طفلة مع مربيتها وأقامتا فيه، وهي تظن أن شيئا ما حدث للطفلة فأخذتها المربية وغادرت المنزل، وبعد ذلك سألته السيدة "**بوسقوان**" عن سر اهتمامه بهذا المنزل فاخبرها باختصار، وعند

ذلك نظرت إليه بشك وقالت:

– هل أنت خارج من مستشفى الأمراض العقلية أو شيء من هذا القبيل؟ هل أنت خارج لفترة تحت الاختبار؟ فأجابها:

– أظن أني قد أبدو هكذا، ولكن الأمر في الحقيقة في غاية البساطة، فإن زوجتي أرادت أن تعثر على هذا المنزل، وهكذا قامت بعدة رحلات بالقطار لتعرف أين رأته في أول مرة، وأعتقد أنها وجدته فعلا وأنها ذهبت لهذا المكان.. ما اسمه؟ "شنسلور"؟

– نعم، اسمه "**سوتون شنسلور**" وكانت فيما مضى قرية صغيرة جدا، وبالطبع ربما تكون قد تطورت وأصبحت مدينة كبيرة الآن.

– أظن أن هذا ممكن.. لقد اتصلت تليفونيا وقالت إنها عائدة ولكنها لم تعد، وأنا أريد أن أعرف ماذا حدث لها وأعتقد أنها ذهبت للتحري عن هذا المنزل، وربما تعرضت لخطر.

– وما هي خطورة هذا الموضوع؟

– لا أعرف، ولم يكن أي منًا يعرف، ولم أكن لأعتقد أن هناك أي مخاطرة فيه، ولكن زوجتي كانت تعتقد عكس ذلك.

– شعور داخلي؟

– ربما فهذه طبيعتها.. لم تعرفي أو تسمعي منذ عشرين عاما أو الآن عن سيدة اسمها السيدة "**لنكستر**"؟

– السيدة "**لنكستر**"؟ كلا لا أعتقد ذلك فإنه من الأسماء التي يزدريها المرء.. كلا.. وماذا عن السيدة "**لنكستر**"؟

– إنها المالكة الأصلية لهذه الصورة، وقد أهدتها كعربون صداقة لخالتي وقد غادرت بيتا من بيوت العجزة فجأة، فقد أخذها بعض أقاربها معهم، وقد حاولت أن أتتبع أثرها، ولكن الأمر لم يكن سهلا.

– من المخبول فيكما أنت أم زوجتك؟ اسمح لي أن أقول إنه يبدو أنك تخيلت أمورا كثيرة وأصبحت في حالة انزعاج شديدة.

– نعم بوسعك أن تقولي هذا.. إنني منزعج دون سبب، هذا هو ما تقصدينه،

أليس كذلك؟ وأظن أنك محققة في ذلك. وقالت السيدة "**بوسقوان**" وقد تغيرت نبراتها قليلا:

– كلا، إني لا أقول أنك منزعج بدون أي سبب بالمرة. ونظر إليها "**تومي**" بتساؤل وقالت السيدة "**بوسقوان**":

– هناك أمر واحد غريب بخصوص هذه الصورة.. أمر غريب جدا.. فأنا أتذكر هذه الصورة جيدا كما أني أتذكر معظم لوحات "**ويليام**" على الرغم من كثرة ما رسم.

– هل تتذكرين لمن بيعت، إذا كانت قد بيعت؟

– كلا، إني لا أتذكر هذا، ولكنها بيعت وقد بيع معها عدد كبير من لوحاته في أثناء معرض أقامه، بيعت هي ولوحات رسمها قبل وبعد هذه اللوحة، وقد بيع عدد كبير ولا أستطيع أن أتذكر من الذي اشتراها، فإن هذا أكثر من استطاعتي.

– إني أشكرك جدا لكل الذي تذكرتيه.

– إنك لم تسألني بعد، لماذا قلت إن هناك أمرا غريبا بخصوص هذه الصورة التي جئت بها هنا.

– أتعنين أنها ليست بريشة زوجك وأن شخصا آخر رسمها؟

– آه كلا، فهذه هي الصورة التي رسمها "**ويليام**" وأعتقد أنه سماها في الكتالوج "المنزل بجوار القناة" ولكن ليست كما كانت ففيها شيء غير صحيح.

– ما هو؟ ومدت السيدة "**بوسقوان**" أصابع ملطخة بالصلصال وأشارت إلى نقطة تحت القنطرة التي تعلو القناة وقالت:

– أترى هنا؟ هناك قارب مربوط تحت الكوبري، أليس كذلك؟ وقال "**تومي**" وهو في حيرة:

– نعم.

– حسنا لم يكن هذا القارب موجودا هنا عندما رأيت هذه الصورة في آخر مرة ولم يرسم "**ويليام**" هذا القارب أبداً، وعندما عرضت اللوحة في المعرض لم يكن فيها قارب من أي نوع.

– أتعني أن شخصا ما، غير زوجك رسم هذا القارب بعد ذلك؟

- نعم.. أليس هذا غريبا؟ وإني لأتساءل عن السبب. فأولا دهشت عندما رأيت هذا القارب في مكان لم يكن به أيّ قارب، ثم بوسعي أن أرى بوضوح أن "**ويليام**" لم يرسمه، وهو لم يضعه هنا في أي وقت وإنما فعل ذلك شخص آخر، وأنا أتساءل عمن يكون؟ ونظرت لـ"**تومي**" ثم قالت:

- ولماذا فعل ذلك؟ ولم يكن لدى "**تومي**" حل، وراح ينظر إلى السيدة "**بوسقوان**" وكانت تنظر إليه ليس بتحد ولكن بتفكير.. وأخيرا قالت:

- ما الذي ستفعله الآن؟ وكان هذا على الأقل سؤالا سهلا فلم يكن لدى "**تومي**" أي صعوبة لمعرفة ما سيفعله الآن.

- سأذهب إلى البيت الليلة، لأرى إن كانت هناك أية أنباء عن زوجتي، أي اتصال منها، فإن لم يكن فسأذهب غدا إلى هذا المكان، "**سوتون شنسلور**" وأرجو أن أجد زوجتي هناك.

- هذا يعتمد على..

- على ماذا؟ وعبست السيدة "**بوسقوان**" ثم همست كما لو كانت تلوم نفسها: إني لأتساءل أين هي؟

- عمن تتحدثين؟

- آه.. إني كنت أعني زوجتك وآمل أنها بخير.

- ولماذا لا تكون بخير؟ قولي لي يا سيدة "**بوسقوان**" هل هناك شيء مريب في هذا المكان في "**سوتون شنسلور**"؟

- في "**سوتون شنسلور**"؟ وفكرت ثم قالت:

- كلا، لا أعتقد ذلك، ليس بالبلدة.

- أظن أنك كنت تعني المنزل، المنزل المجاور للقناة وليس قرية "**سوتون شنسلور**".

- آه، المنزل، لقد كان في الواقع منزلا جيدا بني من أجل العشاق.

- وهل كان يسكنه عشاق؟

- أحيانًا، ولكن ليس كثيرا في الحقيقة... إن المنزل لو بني للعشاق فيجب أن يسكنه عشاق.

- وليس أن يستعمله شخص ما استعمالا آخر.

– إنك ذكي فقد فهمت ما أعنيه بسرعة، أليس كذلك؟ لا يجب أن يُستعمل منزل في غرض مخالف للغرض الذي بني من أجله وإلا فلن يرضى المنزل عن ذلك.

– هل تعرفين أي شيء عن الناس الذين عاشوا فيه في السنوات الأخيرة؟ وهزت رأسها وقالت:

– كلا.. كلا.. لا أعرف شيئا عن المنزل بالمرة فهو لم يكن مهما بالنسبة إليَّ.

– ولكنك تفكرين في شيء.. كلا بل في شخص ما؟

– نعم، أظن أنك محق في هذا فأنا أفكر في شخص ما.

– ألا تستطيعين إخباري عن الشخص الذي تفكرين فيه؟

– لا يوجد في الحقيقة شيء لأقوله، ففي بعض الأحيان يتساءل المرء فقط عن أين يوجد شخص ما، وما حدث له أو لهم، أو كيف تطور أو تطوروا.. هناك شعور. ولوحت بيدها ثم قالت على غير انتظار:

– هل تحب أن تأكل رنجة؟ وذهل "تومي" وقال:

– رنجة؟

– حسنا إن عندي بالصدفة ثلاث رنجات هنا، وفكرت أنه ربما يستحسن أن تأكل شيئا قبل أن تلحق بالقطار. إن "وتر لو" هي محطة القطار الذاهب لـ" **سوتون شنسلور**" وكنا نضطر إلى أخذ قطار آخر من "**مركيت باسنج**" وأعتقد أنه مازال نفس النظام. وكانت تصرفه بهذا الكلام، وتقبَّل الأمر وانصرف.

❖❖❖❖❖

الفصل الثاني عشر

طرفت "**توبنس**" عينيها، وكانت الرؤية مظلمة قليلا وحاولت أن ترفع رأسها من فوق الوسادة ولكنها أجفلت عندما شعرت بألم حاد فيها، وأغلقت عينيها ثم فتحتهما بعد قليل وطرفت مرة أخرى. وبشعور من أنجز شيئا، تعرَّفت المكان المحيط بها، وفكرت "**توبنس**": "إني في جناح مستشفى"، وشعرت بارتياح لأنها وصلت إلى هذه النتيجة ولم تحاول أن تستنتج أكثر من هذا. إنها في جناح مستشفى ورأسها

تؤلمها.. فلماذا تؤلمها، ولم هي في جناح مستشفى؟ ومرت بذاكرتها رؤية باهتة لرجل متقدم في السن يرتدي ملابس قس، وقالت "**توبنس**" بشك: "هل هو أبي؟" ولم يكن في وسعها أن تتذكر الحقيقة ولكنها خمنت أنه كذلك، وفكرت "**توبنس**": "ولكن لماذا أنا مريضة في مستشفى؟ أعني أني ممرضة في مستشفى فكان يجب أن أكون مرتدية الزي الرسمي.." وسريعا ما ظهرت ممرضة بجوار سريرها وقالت بمرح مصطنع:

– هل تشعرين بتحسن الآن يا عزيزتي؟ هذا أفضل.. أليس كذلك؟ ثم ذكرت شيئا بخصوص فنجان شاي لطيف.. وقالت "**توبنس**" لنفسها ببعض الامتعاض: "يبدو أني مريضة" وظلت مستلقية وهي تحاول أن ترتب في عقلها أفكارا وكلمات مختلفة وغير مرتبطة. وقالت "**توبنس**":

– جنود.. نعم.. هو كذلك بالطبع، فأنا إحدى ممرضات الجنود. وأحضرت لها الممرضة بعض الشاي وأسندتها بينما كانت ترتشفه. ومرة أخرى شعرت بالألم في رأسها وقالت "**توبنس**" بصوت عال:

– أنا ممرضة. ونظرت إليها الممرضة بدون أن تفهم وأضافت "**توبنس**":

– إن رأسي يؤلمني. قالت الممرضة:

– سيتحسن قريبا. وأخذت الفنجان وقالت لرئيستها وهي تمر بها:

– لقد أفاقت نمرة 14 ولكنها تهذي قليلا.

– هل قالت أي شيء؟

– قالت أنا ممرضة. وقالت رئيسة الممرضات بلهجة من تهزأ بالأشخاص غير المهمين والذين يدعون أنهم مهمين:

– سنبحث هذا الأمر، أسرعي أيتها الممرضة ولا تضيعي النهار كله مع هذا الفنجان لتغذية المرضى. وظلت "**توبنس**" نصف نائمة على وسادتها ولم تكن قد تعدت بعد مرحلة السماح لأفكارها بدخول عقلها في غير انتظام. كانت تشعر أن هناك شخصا تعرفه جيدا كان يجب أن يكون موجودا هنا، وأن هناك أمرا غريبا جدا خاصا بهذا المستشفى، فإنه لم يكن المستشفى الذي يتذكره والذي كانت تعمل ممرضة فيه، وقالت "**توبنس**" وهي تحدث نفسها: "كان جناح العمليات الجراحية

الذي كنت أعمل به وأختص بصفي (أ، ب) مليئا بالجنود، وفتحت عينيها وألقت نظرة أخرى حولها ثم قررت أنه مستشفى لم تره قط من قبل، وليس له أية علاقة بتمريض حالات العمليات الجراحية الحربية أو خلافه. وقالت "**توبنس**" :

– إني لأتساءل أين هذا المكان وما اسمه؟ وحاولت أن تتذكر أسماء مستشفيات، وكانت كل ما تستطيع أن تتذكره هو "**لندن**" و" **سوتسبتون**" . وظهرت رئيسة ممرضات الجناح بجوار السرير وقالت :

– أرجو أن تكوني أحسن الآن.

– إني بخير، ماذا حدث لي؟

– لقد أصبت في رأسك، وأظن أنها تؤلمك أليس كذلك؟

– إنها تؤلمني فعلا، وأين أنا؟

– في المستشفى الملكي لـ"**مركيت باسنج**" . وفكرت "**توبنس**" في هذه المعلومات ولم تعن شيئا لها بالمرة. وقالت :

– رجل دين عجوز..

– أرجو معذرتك.

– لا إنه ليس شيئا معينا.

– لم نتمكن بعد من كتابة اسمك على ورقة علاجك، وأخرجت قلمها الجاف ونظرت لـ"**توبنس**" بتساؤل :

– اسمي؟

– نعم، لنسجله.

– وظلت "**توبنس**" صامتة وهي تفكر: «اسمها. ما اسمها؟» وقالت "**توبنس**" لنفسها: "ما أسخف هذا.. يبدو أني نسيته.. ومع ذلك فلابد أن لي اسما.." وفجأة شعرت بالارتياح ومضى أمامها وجه القس العجوز وقالت بعزم:

– بالطبع.. إن اسمي "**برودنس**" .. "**برودنس كولي**" .. وكتبت الممرضة الاسم وانصرفت وقد بدا عليها أنها شخص لم يعد يقلقه سجلاته. وشعرت "**برودنس**" بالرضاء عن نفسها: «إنها "**برودنس كولي**" في الـ"ف. أ. د" وأبوها رجل دين في مكان ما، وهناك حرب و..» قالت "**برودنس**" وهي تحدث نفسها: "غريبة يبدو أني

مخطئة، ويبدو لي أن كل هذا حدث منذ زمن طويل" ، ثم تمتمت لنفسها "هل كان طفلك المسكين" وتساءلت أهي التي قالت هذا الآن أم سبق أن قاله لها شخص آخر؟ ورجعت الممرضة مرة ثانية وقالت:

– ما هو عنوانك يا آنسة.. أو ربما السيدة "**كولي**" ؟ هل كنت تسألين عن طفل؟

– هل كان طفلك المسكين، هل قال لي شخص ما هذا.. أم هل كنت أقوله لهم؟

– لو كنت مكانك يا عزيزتي لنمت الآن قليلا، وانصرفت وأعطت المعلومات التي حصلت عليها للجهة المختصة، وقالت:

– يبدو أنها استعادت وعيها يا دكتور وهي تقول إن اسمها "**برودنس كولي**" .. إنها لا تتذكر عنوانها وقد ذكرت شيئا عن طفل. وقال الطبيب بطريقته العادية اللامبالية:

– حسنا، سنعطيها أربعًا وعشرين ساعةً أخرى، فإنها تتماثل للشفاء من ارتجاج المخ بطريقة مرضية.

– 2 –

حاول "**تومي**" فتح الباب بمفتاحه، ولكنه فُتح من تلقاء نفسه ووقف "**ألبرت**" على عتبته.

– حسنا هل عادت؟ وهز "**ألبرت**" رأسه ببطء.

– أليست هناك أية أخبار عنها، رسالة تليفونية، تلغراف، خطاب؟

– لا يوجد أي شيء يا سيدي.. لا يوجد أي شيء بتاتا.. كما لا توجد أية رسالة من أي شخص.. إنهم يلزمون الصمت، ولكنها في قبضتهم. هذا هو رأيي، إنها في قبضتهم.

– ما الذي تعنيه بحق الشيطان بقولك إنها في قبضتهم؟ يا لقراءتك الخيالية. من تمكن منها؟

– حسنا.. إنك تعرف ما أقصده.. العصابة.

– أية عصابة؟

– إحدى العصابات التي تستعمل السكاكين أو عصابة دولية.

– كف عن هذا الهراء.. هل تعرف ما أعتقده؟ ونظر إليه "**ألبرت**" بتساؤل:

– أعتقد أنه من غير اللائق منها ألا ترسل لنا أية رسالة؟

– آه.. فهمت ما تعنيه، وأظن أن بوسعك أن تنظر للأمر بهذه الطريقة، إن كان هذا سيسعدك.. وأخذ الصورة من يد "**تومي**" وقال:

– أرى أنك عدت بهذه الصورة.

– نعم، لقد أرجعت هذه الصورة اللعينة ولم تفدني كثيرا..

– ألم تعرف شيئا عن طريقها؟

– بل عرفت بعض الأشياء، ولكني لا أعرف إن كانت ستفيدني أم لا.. ثم أضاف أظن أن الدكتور "**موري**" لم يتصل تليفونيا ولا الآنسة "**باكار**" من "**سوني ريدج**"؟

– لم يتصل أحد على الإطلاق. ورن جرس التليفون وهب "**تومي**" من مقعده وهرع إليه في الحال:

– مرحبا.. مرحبا؟ وتكلم صوت خافت من بعيد:

– سيد "**توماس بيريسفورد**"؟ هل تقبل مكالمة شخصية من "**إينفرجشلي**".

– نعم.

– انتظر على الخط من فضلك. وانتظر "**تومي**" وقد هدأ، وكان عليه أن ينتظر بعض الوقت ثم سمع صوتا يعرفه، صوت ابنته الحاد.

– مرحبا أهذا أنت يا أبتاه؟ واستطردت:

– اسمع يا أبي.. لقد رأيت شيئا في الصحيفة وربما رأيته أنت أيضا، وقد كنت أتساءل عن الخبر. إنه عن شخص أصيب في حادث وأخذ إلى المستشفى.

– حسنا، لا أعتقد أني رأيت أي شيء من هذا القبيل.. أعني لم ألاحظه بأي شكل. لماذا؟

– إنه.. إنه لا يبدو أمرا خطيرا، وأظن أنه حادث سيارة أو شيء من هذا القبيل وقد ورد في الصحيفة أن المرأة –وهي امرأة متقدمة في السن– قالت إن اسمها "**برودنس كولي**" ولكنهم لم يتمكنوا من العثور على عنوانها.

– "**برودنس كولي**"؟ أتعنين؟

– نعم.. إني فقط.. حسنا.. إني فقط تساءلت أن هذا هو اسم أمي أليس

كذلك؟ أعني أنه كان اسمها.

– بالطبع ولكن أين وقع الحادث؟

– أعتقد أنه ذكر أنها في مستشفى في "**مركيت باسنج**" وكانوا يريدون معرفة المزيد عنها، وكنت فقط أتساءل، حسنا، إني أعرف أنه أمر في غاية السخف فهناك بلا ريب عديد من الناس اسمهم "**كولي**" وعدد كبير اسمهن "**برودنس**"، ولكني فكرت أن أتصل تليفونيا وأستطلع الأمر.. أعني أتأكد أن أمي في المنزل وبخير.

– فهمت.. نعم فهمت.

– حسن اكمل يا أبي هل هي في البيت؟

– كلا، إنها ليست في البيت، كما أني لا أعرف أيضا إن كانت بخير أم لا؟ فقالت الابنة:

– ماذا تعني؟ ما الذي فعلته أمي؟ أظن أنك كنت في هذا الاجتماع السري جدا وهو أمر سخيف من بقايا الماضي، وكنت تثرثر مع أصدقائك القدماء.

– إنك محقة فقد عدت منه مساء أمس.

– وتبينت أن أمي غير موجودة أم هل كنت تعرف أنها مسافرة؟ هيا يا أبي ارو لي الأمر، فإنك قلق وأنا أعرف متى تكون قلقا. ما الذي تفعله أمي؟ إنها كانت تقوم بشيء. أليس كذلك؟ كم أتمنى لو أنها تعلمت في هذه السن أن تجلس بهدوء في المنزل.

– لقد كانت قلقة لأمر وقع وله علاقة بموت خالتك الكبيرة "**آده**".

– مثل ماذا؟

– حسنا.. إنه شيء قالته لها إحدى النزيلات في "**سوني ريدج**"، وأقلقت هذه السيدة العجوز والدتك –وكانت قد تحدثت معها طويلا، ولذلك عندما ذهبنا لفحص الأشياء الخاصة بالخالة "**آده**" طلبنا أن نتحدث مع تلك السيدة العجوز وظهر أنها غادرت الدار فجأة.

– حسنا.. إن هذا يبدو طبيعيا.. أليس كذلك؟

– لقد جاء بعض أقاربها وأخذوها معهم.

– إن الأمر ما زال يبدو طبيعيا. فما الذي أقلق أمي..؟

– لقد تسلطت عليها فكرة أن شيئا ما حدث للسيدة العجوز.

– فهمت؟

– يبدو أن هذه السيدة اختفت، والأمر كله يبدو طبيعيا ويؤيده محامون وبنك، ولكننا.. ولكننا لم نستطع أن نعرف مكانها.

– أتعني أن أمي ذهبت للبحث عنها في مكان ما؟

– نعم، ولم تعد بينما كانت قد قالت منذ يومين إنها ستعود.

– ألم تتصل بك؟

– كلا. وقالت "**ديبورا**" بحدة:

– كنت أتمنى أن يكون في وسعك الاعتناء بأمي كما يجب. فقال أبوها:

– لم يستطع أحد منا أن يعتني بها كما يجب أبدا، ولا حتى أنت يا "**ديبورا**" فهذا شبيه بما فعلته في أثناء الحرب عندما رحلت وقامت بأمور كثيرة ما كان يجب أن تفعلها.

– ولكن الأمر يختلف الآن.. أعني أنها قد أصبحت عجوزا ويجب أن تظل في البيت وتعتني بنفسها وأظن أن حقيقة الأمر هو أنها شعرت بالملل. وتساءل الأب:

– هل قلت مستشفى "**مركيت باسنج**"؟

– في "**ميلفورد شير**" وهي تبعد حوالي ساعة ونصف من "**لندن**" بالقطار– على ما أعتقد.

– تماما.. وهناك قرية اسمها "**سوتون شنسلور**" قريبة من "**مركيت باسنج**".

– ما صلة هذا بالموضوع؟

– إنه أمر يطول شرحه الآن، وله علاقة بصورة زيتية لمنزل بجوار قنطرة على قناة.

– لا أظن أني أسمعك جيدا. ما الذي تتحدث عنه؟

– لا تهتمي. سأتصل بمستشفى "**مركيت باسنج**" وأستعلم عن بعض الأمور، فأنا أشعر أنها والدتك، وأنت تعرفين أن الناس إذا أصيبوا بارتجاج في المخ يتذكرون في أول الأمر ما حدث عندما كانوا أطفالا، ثم يتذكرون ببطء الحاضر، وقد تذكرت اسمها قبل الزواج، وقد يكون وقع لها حادث بالسيارة، ولكني لن أدهش إن كان شخص ما قد ضربها على رأسها، فهذا هو ما يحدث عادة لوالدتك فهي تتورط في الأمور..

وسأخبرك بما سأعرفه. وبعد ذلك بأربعين دقيقة نظر "**تومي**" إلى الساعة التي في معصمه وتنهد بتعب جم وهو يضع السماعة مكانها أخيراً، وهنا ظهر "**ألبرت**" وقال:

– ماذا عن عشائك يا سيدي؟ إنك لم تأكل شيئا ويؤسفني أن أقول إني نسيت الدجاجة وقد احترقت تماما.

– لا أريد أي طعام.. إن ما أريده هو كأس فجئني بكأس شراب كبير.

– سمعا يا سيدي. وبعد لحظات قليلة جاء الشراب المطلوب إلى حيث كان "**تومي**" جالسا في المقعد البالي المريح المعد لاستعماله الخاص. وقال "**تومي**":

– والآن أظن أنك تريد أن تسمع كل شيء.. وقال "**ألبرت**" بنبرة اعتذار:

– إنني في الواقع أعرف أغلب الأمر فبما أن الموضوع يخص سيدتي فقد سمحت لنفسي برفع سماعة التليفون التي في حجرة النوم وأعتقد أنك لن تتضايق من هذا ياسيدي بما أنه بخصوص سيدتي.

– أنا لا ألومك، وفي الواقع إني ممتن لك فلو كان عليٍّ أن أبدأ بالشرح.

– إنك اتصلت بكل الناس أليس كذلك؟ بالمستشفى والطبيب ومديرة المستشفى؟

– لا حاجة لاستعادة الموضوع.

– مستشفى "**مركيت باسنج**".. إنها لم تذكر كلمة عنها ولم تترك عنوانا أو أي شيء من هذا القبيل. فقال "**تومي**":

– لم يكن في نيتها أن يصبح هذا عنوانها لقد ضربت على رأسها –وعلى قدر ما استطعت أن أفهم– في مكان منعزل وأخذها شخص ما في سيارة وألقى بها على جانب من الطريق في مكان ما لتلتقط على أنها ضحية عادية لسيارة صدمتها وهربت. ثم أضاف:

– أيقظني غدا في السادسة والنصف صباحا فإني أريد أن أسافر في وقت مبكر. وتساءل "**ألبرت**":

– أهي على شفا الموت يا سيدي؟ قال "**تومي**":

– أكبح تخيلاتك الميلودرامية ولو أنك كنت استمعت جيدا لكنت قد سمعت أنها تتماثل للشفاء وأنها تعرف من هي وأين هي، وأنهم أقسموا على الاحتفاظ لي بها حتى أصل لأتولى رعايتها من جديد، وأنه لن يسمح لها بأية حال بالخروج وحدها

والقيام بحماقة بأعمال بوليسية أخرى. وقال "**ألبرت**" :

– على ذكر الأعمال البوليسية.. وتردد "**ألبرت**" وتنحنح قليلا!! فقاطعه "**تومي**" :

– لا أريد أن أتحدث عنها على وجه الخصوص.. إنها يا "**ألبرت**" تفهم في الحسابات وفلاحة الحدائق وأي شيء.

– حسنا إني كنت أفكر فقط.. أعني أفكر في مسألة الأدلة.

– وماذا عنها؟

– كنت أفكر..

– إن التفكير هو مصدر كل المتاعب في هذا العالم.

– الأدلة.. هذه الصورة مثلا.. إنها دليل، أليس كذلك؟ ولاحظ "**تومي**" أن "**ألبرت**" علّق الصورة على الحائط. وتابع "**ألبرت**" الحديث قائلا:

– إذا كانت هذه الصورة دليلا فما الذي تعتقد أنها تؤدي إليه؟ أعني ماذا تعني؟ كان يجب أن يكون لها معنى، وفي الواقع إن الذي كنت أفكر فيه، هو هذا المكتب.. نعم، المكتب الذي أتت به شركة نقل الأثاث ومعه المنضدة الصغيرة والأشياء الأخرى.. أقلت إنها ممتلكات عائلية؟

– كانت ملكا لخالتي "**آده**" .

– حسنا، هذا هو ما عنيته يا سيدي، فإن الأدلة توجد في أماكن مثل المكاتب القديمة الأثرية.

– جائز.

– إني أعرف أن هذا لم يكن من شأني، وأظن أني في الحقيقة لم يكن يصح أن أقلب الأمور.

– ماذا.. هل فتشت المكتب؟

– نعم، لأرى فقط إن كان هناك أي دليل فإن المكاتب التي من هذا الطراز فيها أدراج سرية، وقد يكون هناك دليل مخبأ في درج سري.

– هذه فكرة لطيفة ولكن لا يوجد سبب –على قدر علمي– لأن تخبئ خالتي "**آده**" أشياء في أدراج سرية.

– لا تستطيع –فيما يتعلق بالسيدات المسنات– أن تتأكد أبدا، فإنهن مثل الغربان

يغرمن بإخفاء الأشياء، وقد تكون هناك وصية سرية أو ورقة كتبت بالحبر الخفي أو كنز في الدرج. واستطرد السيد "**تومي**" قائلا:

– إني آسف يا "**ألبرت**"، ولكني أعتقد أني سأخيب ظنك، فأنا متأكد تماما أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل في هذا المكتب العائلي القديم اللطيف الذي كان ملكا في يوم من الأيام لخالي "**ويليام**". فقال "**ألبرت**":

– الذي فكرت فيه يا سيدي هو أنه لن يقع أي ضرر لو فحصته، أليس كذلك؟ ثم أضاف مبررا:

– إنه كان يحتاج إلى تنظيف على أي حال. وفكر "**تومي**" لحظة فقد تذكر أنه فحص مع "**توبنس**" أدراج المكتب بسرعة، ووضع محتوياته في مظروفين كبيرين وأخرج منه بعض الأشياء القديمة التي قررا الاستغناء عنها. ثم قال:

– إننا فحصنا محتوياته يا "**ألبرت**" وأمضينا في هذا في الواقع أمسيتين، ووجدنا به خطابين قديمين ممتعين، وبعض الوصفات لحفظ الفاكهة والكوبونات التموينية التي يرجع تاريخها إلى الحرب، ولم يكن بها أي شيء ذو أهمية. قال "**ألبرت**":

– أوه! إن هذه مجرد أوراق وأشياء بدون أهمية وهي الأشياء العادية التي قد يحتفظ بها كل الناس في المكاتب والأدراج. إن الذي أعنيه هو الأدراج السرية. ألا تعتقد ياسيدي أنه يجب أن تلقي نظرة؟ أعني أني لم أرض أن أفحص الأدراج في غيابك، فقد كان هذا سيكون تبجحا من جانبي. ونظر إلى "**تومي**" مثل كلب يتوسل. ورضخ:

– هيا يا "**ألبرت**" لنذهب ونتبجح. ومر بخلد "**تومي**" وهو واقف بجوار "**ألبرت**" يراقب هذه العينة من ميراثه من الخالة "**آده**": «إنه محتفظ بحالة جيدة، بوية قديمة لامعة جيدة تُظهر حسن ومهارة صناعة الأيام الماضية». وقال "**تومي**":

– حسنا يا "**ألبرت**" امض قدما فهذه هي لعبتك ولكن لا تفسد المكتب.

– آه، إني كنت حريصا جدا ولم أخدشه أو أحاول فتحه بسكين أو أي شيء من هذا القبيل. ثم مضى يشرح لـ"**تومي**" أنواع الأدراج السرية وطريقة فتحها ثم فتح بخفة الدرج السري وأخرجه ووضعه أمام "**تومي**" مثلما يضع كلب عظمته أمام سيده.

– انتظر الآن لحظة يا سيدي، فهناك شيء ملفوف في ظرف والآن سنفتح الدرج

الذي في الناحية الأخرى. وغير وضع يديه ثم تابع حركاته البهلوانية، وسريعا ما كشف عن درج آخر وأخرجه ووضعه بجوار الأول ثم قال **"ألبرت"** :

– هناك أيضا شيء آخر هنا إنه ظرف آخر مغلق بإحكام خبأه شخص ما في وقت ما ولم أحاول أن أفتح أيا منهما فما كنت لأفعل شيئا من هذا في غيابك، وقد تركت لك هذا، ولكن ما أقوله هو أنهما قد يكونان أدلة. وأخرج هو و **"تومي"** محتويات الأدراج المترتبة، وأخذ **"تومي"** أولا ظرفا مغلقا ملفوفا بالطول وحوله شريط من الأستيك تفتت بمجرد لمسه. وقال **"ألبرت"** :

– إنه يبدو قيما. وألقى **"تومي"** نظرة على الظرف وكان مكتوبا عليه "سري وخاص" . وقال **"ألبرت"** :

– أرأيت؟ "سري وخاص" إنه دليل، وأخرج **"تومي"** محتويات الظرف وكان فرخا من الورق مكتوبا عليه بخط غير واضح، وقلبه **"تومي"** وانحنى **"ألبرت"** من فوق كتفه وهو يتنفس بصوت عال. وقرأ **"تومي"** :

– وصفة السيدة **"ماك دونالد"** لكريمة السلمون وقد أعطيت لي كمكرمة خاصة: خذ 900 جرام من السلمون المتوسط الحجم وربع لتر من كريمة جيرسي وكوباً من البراندي وخيارة طازجة، وتوقف عن القراءة وقال:

– إني آسف يا **"ألبرت"** فإنه دليل سيقودنا إلى طبق جيد دون شك. وصدرت من **"ألبرت"** أصوات تدل على سخطه وخيبة أمله وقال **"تومي"** :

– لا عليك فهنا محاولة أخرى. وبدا أنَّ الظرف الآخر المغلق ليس قديما بهذا الشكل، فقد كان مغلقا بخاتمين من الصمغ الرمادي الفاتح وكل منهما يمثل وردة برية. وقال **"تومي"** :

– جميل ويبدو مزركشا من عادة الخالة **"آده"** وأظن أنه يحوي طريقة طبخ فطيرة بيف ستيك. وفتح **"تومي"** الظرف ثم رفع حاجبيه دهشة فقد وقعت منه عشر ورقات من فئة الخمسة جنيهات مطوية بعناية. وقال **"تومي"** :

– إنها من الورق الرفيع اللطيف.. الصنف القديم الذي كان متداولا في أثناء الحرب وهو ورق جيد، وعلى الأرجح ليس متداولا في أيامنا هذه. قال **"ألبرت"** :

– مال.. لماذا كانت في حاجة لكل هذا المال..؟ فقال **"تومي"** :

– أوه إن هذا هو مدخرات طوارئ لسيدة عجوز، وكانت الخالة "**آده**" دائما لديها واحدة وقد قالت منذ عدة أعوام إن كل امرأة يجب أن يكون معها دائما خمسون جنيها مكونة من ورق فئة خمسة جنيهات لمواجهة ما كانت تسميه حالات الطوارئ.

فقال "**ألبرت**":

– حسنا.. أعتقد أنه سيكون ذا فائدة.

– لا أظن أنها فقدت قيمتها وأعتقد أن بوسعي أن أغيرها في البنك بالنقد المتداول الآن.

– هناك ظرف آخر في الدرج الآخر. وكان الظرف الآخر أسمك ومغلقا بإحكام أكثر ومكتوبا عليه: "في حالة وفاتي يجب إرسال هذا الظرف دون فتحه إلى محامي السيد "**روكربي**" من مكتب "**روكربي**" و"**تومكنز**" أو إلى ابن أختي "**توماس بيريسفورد**" وغير مسموح لأي شخص آخر بفتحه". وكان في الظرف عدة صفحات مكتوبة بخط لا يكاد يقرأ وتمكن "**تومي**" من قراءتها بصعوبة:

«أنا "**آده ماريا فانشو**"، أكتب هنا عن بعض الأمور التي علمت بها والتي رواها لي أناس يقيمون هنا في "**سوني ريدج**". ولا أستطيع أن أضمن صحة هذه المعلومات، ولكن يبدو أن هناك سببا للاعتقاد بأن نشاطا مشكوكا فيه –ومن الجائز أن يكون إجراميا– يجري هنا أو حدث هنا وقد قالت "**إليزابيث مودي**"، وهي امرأة ساذجة ولكني لا أعتقد أنها كاذبة، إنها تعرفت هنا على مجرمة معروفة، وقد تكون هناك بيننا قاتلة بالسم، وأنا عن نفسي أفضل أن أتريث قبل أن أكوّن فكرة ولكني سأكون حذرة، وإني أنوي أن أكتب هنا أي وقائع أعلم بها، وقد يكون الأمر كله خدعة ومطلوب من محام أو من ابن أختي أن يقوم بتحريات كاملة إذا حدث لي شيء غامض». وقال "**ألبرت**" بانتصار:

– هاك، لقد قلت لك ذلك.. إنه دليل..

❖❖❖❖❖

الفصل الثالث عشر

سمح لـ"**توبنس**" أخيرا، بعد مضي فترة من لقائها السعيد بـ"**تومي**" في المستشفى بمغادرته، وكان الزوجان الوفيان يجلسان الآن في غرفة جلوس أفضل جناح في فندق "**ذي لامب آند فلاج**" في "**مركيت باسنج**" وهما يتبادلان معلوماتهما.. وقالت "**توبنس**":

– أظن أن الذي يجب أن نفعله هو أن نفكر. فقال لها زوجها:

– دعي التفكير وشأنه، فأنت تعرفين ما الذي قاله الطبيب قبل أن يسمح لك بالخروج: ممنوع القلق، ممنوع التعب الذهني، نشاط جثماني قليل جدا، وأخذ كل الأمور بالراحة.

– وما الذي أفعله خلاف ذلك الآن؟ إني أرفع قدمي ورأسي على وسادتين أليس كذلك؟ وأما عن التفكير فالتفكير ليس بالضرورة تعبا ذهنيا، فأنا لا أدرس رياضة أو اقتصاد ولا أحسب حسابات المنزل.. إن التفكير الذي أقوم به هو مجرد راحة وترك عقلي مفتوحا في حالة أن تطرأ لي فكرة مهمة وعلى أية حال ألا تفضل أن أفكر وأنا مستلقية براحة من أن أقوم بعمل شيء ما مرة أخرى؟

– حسنا، أحب أن أؤكد لك أن ليس لي أية رغبة الآن في أي نشاط جسدي، والمهم هو أننا يجب أن نتبادل المعلومات فقد حصلنا على أشياء كثيرة.

– ما قصدك بأشياء؟

– أقصد وقائع مختلفة، وهي وقائع كثيرة أكثر من اللازم، وليس فقط وقائع بل قيل وقال وأساطير، والأمر كله مثل سلة مليئة بأنواع مختلفة من الصناديق، ودفنت بين القش.

– إن القش هي الكلمة المناسبة.

– أنا لا أعرف إن كنت تهزأ بي أو إن كنت متواضعا، ولكنك على أي حال تتفق معي في الرأي، أليس كذلك؟ إن لدينا كثيرا جدا من المعلومات بينها الصحيح والخطأ، والأمور المهمة والأمور غير المهمة، وكلها مختلطة بعضها ببعض، ولا نعرف من أين نبدأ. فقال زوجها:

– ابدئي من نقطة ضربك على رأسك وفكرت "**توبنس**" لحظة ثم قالت:

– لا أظن في الحقيقة إن هذه هي نقطة البداية وأعني أنها آخر ما حدث وليست أول ما حدث.

– إنه أول شيء في ذهني، فأنا لن أسمح للناس بضرب زوجتي، وهي نقطة بداية حقيقية فهي ليست خيالا بل أمرا واقعيا حدث حقيقة.

– أوافقك بكل قلبي، فإنه حدث حقيقة وحدث لي وأنا لا أنسى هذا وأفكر فيه منذ أن استعدت قدرتي على التفكير.

– ألديك أية فكرة عمن يكون الفاعل؟

– كلا للأسف فقد كنت أنحني فوق شاهد ثم ضُرِبت.

– من يمكن أن يكون؟

– أظن أنه لابد أن يكون شخص في "**سوتون شنسلور**"، ومع ذلك فالأمر يبدو بعيد الاحتمال لدرجة كبيرة فإني لم أكد أتحدث مع أي شخص.

– القس؟

– لا يمكن أن يكون القس فأولا هو رجل عجوز لطيف وثانيا لأنه ليست لديه القوة الكافية وثالثا لأنه مصاب بالربو ويتنفس بصوت عال، ولم يكن في بوسعه أن يتلصص خلفي بدون أن أسمعه.

– إذن إذا كنت تستبعدين القس.

– ألا تستبعده أنت؟

– نعم، إني أفعل ذلك فإني رأيته وتحدثت معه كما تعرفين، وهو القس هنا منذ أعوام طويلة والجميع يعرفونه، وأظن أنه من الممكن لشيطان مجسد أن يتظاهر بأنه قس طيب، ولكن ليس لفترة تزيد عن أسبوع ولا يمكن أن يفعل هذا لمدة عشر أو اثنتي عشرة سنة.

– إذن المشتبه فيه التالي يكون الآنسة "**نيلي بلاي**" ولو أن الله وحده يعرف السبب، فإنها لا يمكن أن تكون قد فكرت أني كنت أحاول سرقة شاهد.

– هل تشعرين أنها قد تكون هي الجانية؟

– أنا لا أشعر بهذا في الحقيقة، وهي بالطبع ذات كفاءة، ولو كانت تريد أن تتبعني

وترى ما كنت أفعله وتضربني فيمكنها أن تفعل ذلك بنجاح وهي –مثل القس– كانت هناك في مكان الحادث وكانت في "**سوتون شنسلور**" تخرج وتدخل بسرعة من منزلها لتفعل هذا وذاك، وكان بوسعها أن تلمحني وأنا في الجبانة وأن تأتي خلفي على أطراف أقدامها مدفوعة بالفضول وتراني وأنا أفحص القبر، ويسيئها هذا لسبب معين فتضربني بأحد أواني الزهور الخاصة بالكنيسة أو بأي شيء آخر في متناول اليد، ولا تسألني عن السبب، فلا يبدو أن هناك سببا معقولا.

– من التالي يا "**توبنس**"؟ السيدة "**كوبلي**"؟

– السيدة "**كوبلي**"؟ كلا ليست السيدة "**كوبلي**"

– وما الذي يجعلك متأكدة بهذه الدرجة من هذا؟ إنها تقيم في "**سوتون شنسلور**" وكان بوسعها أن تراك وأنت خارجة من المنزل وأن تتبعك.

– آه، نعم نعم ولكنها تتحدث كثيرا جدا.

– أنا لا أرى صلة بين الكلام الكثير وبراءتها.

– لو كنت قد استمعت لها أمسية بأكملها كما فعلت أنا، لأدركت أنه من المستحيل أن تكون المرأة التي تتحدث مثلها بدون توقف امرأة أفعال أيضا.. فإنها لم يكن في وسعها أن تقترب مني في أي مكان بدون أن تتحدث بأعلى صوت وهي آتية. وفكر "**تومي**" في هذا الكلام ثم قال:

– حسنا إنك تحسنين الحكم في هذه الأمور يا "**توبنس**".. لنستبعد السيدة "**كوبلي**" فمن يوجد خلاف ذلك.

– "**آموس بيري**" وهو الرجل الذي يقيم في المنزل المجاور للقناة، وهو زوج الساحرة الودود، وهو غريب الأطوار فهو ذو تفكير محدود، ولكنه رجل قوي وبوسعه أن يضرب أي شخص على رأسه لو أراد، وأعتقد أنه من الممكن أنه يريد ذلك في بعض الظروف الخاصة، ولو أني لا أعرف بالضبط لماذا يريد أن يضربني أنا، وهو في الحقيقة متهم أفضل من الآنسة "**بلاي**" التي تبدو لي مجرد إحدى النساء المتعبات اللاتي يدرن الإبرشيات ويتدخلن فيما لا يعنيهن وليست بالمرة من الطراز الذي يشار إلى درجة التهجم الفعلي إلا لسبب عاطفي غير معقول. ثم أضافت –وهي ترتعش قليلا–
:

– أتعرف..؟ لقد شعرت بخوف من "آموس بيري" في أول مرة رأيته فيها وهو يريني حديقته، وشعرت فجأة بأني.. حسنا أني لا أحب أن أغضبه أو أقابله في طريق مظلم ليلا وشعرت بأنه رجل لا يود أن يكون عنيفا ولكنه بوسعه أن يصبح عنيفا إذا أثاره شيء.

– حسنا "آموس بيري".. رقم واحد..

– هناك زوجته السيدة الودود.. إنها كانت لطيفة ولقد أحببتها، ولا أود أن تكون هي الفاعلة، ولا أعتقد أنها هي ولكنها متورطة في أمور.. أمور لها علاقة بهذا المنزل وهذه نقطة أخرى يا "تومي"، ونحن لا نعرف ما هي النقطة المهمة في كل هذا، وقد بدأت أتساءل إن لم يكن الأمر كله يدور حول هذا المنزل، وربما أن المنزل هو النقطة الرئيسية وأن الصورة تعني شيئا حقا، أليس كذلك يا "تومي"؟ إني أعتقد أنها يجب أن تعني شيئا.

– نعم إني أعتقد أنها لابد من أن تعني شيئا.

– لقد جئت هنا في محاولة للعثور على السيدة "لنكستر" ولكن لا يبدو أن أحدا هنا سمع بها أبدا، وقد كنت أتساءل عما إذا كنت قد فهمت الأمر خطأ، فربما تكون السيدة "لنكستر" في خطر لأنها تملك هذه الصورة، وأنا لا أعتقد أنها كانت أبدا في "سوتون شنسلور" ولكنها إما أن اشترت صورة هذا المنزل أو أهديت إليها وهذه الصورة تعني شيئا وهي بطريقة ما تهدد شخصا ما.

– لقد قالت السيدة "كاكاو" –السيدة "مودي"– للخالة "آده" إنها تعرفت على شخص ما في "سوني ريدج".. شخص له علاقة بنشاط إجرامي.. وأنا أعتقد أن النشاط الإجرامي مرتبط بالصورة وبالمنزل المجاور للقناة وبطفل ربما قتل هناك.

– إن الخالة "آده" أعجبت بصورة السيدة "لنكستر" وأهدتها إياها السيدة "لنكستر" وربما تحدثت عن الصورة.. عن المكان الذي حصلت عليها منه أو من أعطاها لها وأين كان المنزل.. فقال "تومي":

– لقد قتلت السيدة "مودي"؛ لأنها تعرفت قطعا على شخص كان له علاقة بنشاط إجرامي.

– ارو لي مرة أخرى حديثك مع الدكتور "موري"، فإنه بعد أن أخبرك عن موت

السيدة "**مودي**" مضى يتحدث عن أنواع معينة من القتلة، وأعطى أمثلة من قضايا حقيقية من الحياة وأحدها عن امرأة كانت تدير منزلا للسيدات المسنات وتقتلهن بعد أن يوصين لها بأموالهن، وأنها أدينت ولكن لم يؤنبها ضميرها واحتجت بأنها فعلت هذا في الحقيقة رحمة بالعجائز، ثم روى حالة أخرى لخادمة أو طباخة كانت تسمُّ الناس بدون سبب، وأنها كانت مجنونة ولكن تبدو عاقلة. فقال "**تومي**":

– والحالة الثالثة كانت أغرب فهي حالة امرأة فرنسية تعذبت كثيرا؛ لأنها فقدت زوجها وطفلها ففُجعت.. وأصبحت ملاك رحمة.. وكانت تتطوع بتمريض الأطفال ولكنهم كانوا يموتون بعد فترة وكانت تذهب إلى جنازتهم وتبكي ساعات طويلة.. إلخ. لماذا تريدين مراجعة كل هذا يا "**توبنس**"؟

– لأني تساءلت ألم يكن لدى الدكتور "**موري**" سبب لذكر هذه القضايا.

– أتعني أنه ربط بين..

– أعتقد أنه وجد صلة بين ثلاث حالات كلاسيكية معروفة، وحاول أن يرى إن كانت تلائم أي واحدة في "**سوني ريدج**"، والآنسة "**باكار**" بوصفها مديرة كفء لبيت للعجائز تلائم الحالة الأولى.

– إنك حقيقة تكرهين هذه المرأة، وأنا كنت دائما أستلطفها.

– أظن أن بعض الناس الذين يستلطفون القتلة، إنهم مثل النصابين والمختلسين يبدون دائما في غاية الاستقامة والشرف، وأظن أن جميع القتلة يبدون لطافا جدا وذوي قلوب رحيمة والآنسة "**باكار**" على أية حال ذات كفاءة عالية وفي متناول يدها كل الإمكانيات التي تستطيع بها أن تقتل ويبدو الموت طبيعيا بدون شائبة ولن تشك فيها إلا واحدة مثل السيدة "**كاكاو**"؛ لأنها هي الأخرى مجنونة مثلها وبوسعها أن تفهم المجانين أو قد تكون قد صادفتها في مكان آخر قبل ذلك.

– أنا لا أعتقد أن الآنسة "**باكار**" تستفيد ماليا من موت أي من النزيلات.

– أنت لا تعرف فإن الطريقة الأمرً هي ألا تكسب من موتهن جميعا، ولكن من موت واحدة أو اثنتين من الثريات منهن فقط فيتركن لها مبلغا كبيرا، وتكون هناك دائما ميتات طبيعية جدا حين لا تكون هناك أية فائدة مالية لها؛ ولذلك فإني أعتقد أن الدكتور "**موري**" قد يكون ألقى نظرة على الآنسة "**باكار**" وقال لنفسه: "هراء..

إني أتصور أشياء" ولكن الفكرة مع ذلك ظلت لصيقة بعقله، والحالة الثانية ممكن أن تلائم خادمة أو طباخة أو حتى ممرضة.. إحدى المستخدمات في "**سوني ريدج**".. امرأة متوسطة العمر يعتمد عليها، ولكنها مجنونة بهذه الطريقة المعينة وربما تحمل ضغائن وتكره بعض النزيلات هناك، ولا يمكننا أن نخمن من تكون؛ لأني لا أعتقد أننا نعرف أي واحدة هناك معرفة كافية.

- والحالة الثالثة؟

- والحالة الثالثة أصعب فإنها واحدة تكرِّس حياتها متفانية. وقال "**تومي**":

- ربما أضاف هذه الحالة ليكمل الحلقة فقط. ثم أضاف:

- إني أتساءل عن الممرضة الأيرلندية.

- الممرضة اللطيفة التي أعطيناها المعطف الفرو؟

- نعم، الممرضة اللطيفة التي كانت الخالة "**آده**" تحبها، الممرضة الظريفة التي كان يبدو أنها تحب الجميع، وتأسف جدا إذا ماتت واحدة، فقد كانت قلقة جدا عندما كانت تتحدث معنا، أليس كذلك؟ أنت قلت هذا.. إنها كانت سترحل ولم تقل لنا السبب الحقيقي لذلك.

- أظن أنها ربما كانت من الطراز العصبي، فالممرضات ليس من المفروض أن يكُنَّ عاطفيات جداً فهذا يضر المرضى ويقال لهن إنهن يجب أن يكن متمالكات الأعصاب ذوات كفاءة ويوحين بالثقة. واستطردت "**توبنس**":

- ولكن لنعد إلى الصورة ولنركز عليها؛ لأني أعتقد أن ما قلته لي عن السيدة "**بوسقوان**" عندما ذهبت لزيارتها، مهم جدا، فإنها تبدو.. تبدو شيقة جدا.

- إنها كانت شيقة وأعتقد أنها أهم ما صادفته في هذا الموضوع الغريب.. إنها من الطراز الذي يبدو أنه يعرف أشياء، وبدا أنها تعرف أشياء لا أعرفها أنا عن هذا المكان وربما لا تعرفينها أنت.

- إن ما قالته عن القارب الذي لم يكن مرسوما أصلا في الصورة أمر غريب.. لماذا تعتقد أن الصورة يوجد بها قارب الآن؟

- لا أعرف.

- هل كان هناك أي اسم مكتوب على هذا القارب؟ أنا لا أتذكر أني رأيت ذلك

ولكنني لم أنظر إلى القارب عن قرب.

– مكتوب عليه اسم **"وترليلي"**.

– إنه اسم مناسب جدا لقارب.. بماذا يذكرني؟

– ليس لديّ أدنى فكرة.

– وهي كانت متأكدة تماما أن زوجها لم يرسم هذا القارب.. فقد كان بوسعه أن يرسمه فيما بعد.

– إنها تنفي ذلك وكانت متأكدة تماما. فقالت **"توبنس"**:

– يوجد بالطبع احتمال آخر لم نبحثه بعد حادث ضربي على رأسي.. وأعني بذلك احتمال أن يكون الفاعل شخصا من خارج القرية، شخصا ربما تتبعني من **"مركيت باسنج"** في ذلك اليوم ليرى ما أرمي إليه بذهابي لكل هؤلاء السماسرة الذين حاولوا صرف نظري عن المنزل وكانوا يتهربون من أسئلتي أكثر مما يبدو طبيعيا، وهو التهرب نفسه الذي صادفناه عندما كنا نحاول العثور على المكان الذي ذهبت إليه السيدة **"لنكستر"**.. محامون وبنوك ومالك لا نستطيع الاتصال به لأنه في الخارج.. إنه النمط، فهم يرسلون شخصا ما ليتتبع سيارتي؛ لأنهم يريدون معرفة ما أفعله، وتبعا لذلك أُضرب على رأسي وهذا يقودنا إلى الشاهد الموجود في الجبانة، فلماذا لا يريد شخص ما أن أطلع على تلك الشواهد القديمة؟ إنها كانت على أي حال قد أُزيلت جميعا من أماكنها.

– أتقولين أن الكلمات كانت محفورة بدون مهارة؟

– نعم، وأعتقد أنها حُفرت بأزميل بيد غير خبيرة، فالاسم.. **"ليلي وترز"**.. والسن.. سبع سنوات كانا مكتوبين بعناية كما يجب ولكن الكلمات الأخرى التي كانت تبدو مثل.. الشخص.. ثم الذي.. يؤذي.. أي واحد من هؤلاء الصغار.. ثم..

– إن لهذه الكلمات رنة مألوفة.

– يجب أن تكون مألوفة، فهي قطعا من الإنجيل ولكن كُتبت بيد شخص ليس متأكدا تماما من الكلمات التي يريد أن يتذكرها.

– إن الأمر كله غريب جدا.

– ولماذا يكون لدى أي شخص اعتراض، فأنا كنت فقط أحاول أن أساعد القس والرجل المسكين الذي كان يحاول أن يعثر على ابنته الضائعة، وها قد عدنا إلى دافع الطفل الضائع مرة أخرى.. إن السيدة "**لنكستر**" تحدثت عن طفل مسكين مدفون خلف مدفأة، والسيدة "**كوبلي**" ثرثرت عن أطفال مقتولين، وأم قتلت طفلها وعشيقا وطفلا غير شرعي، وحادث انتحار وهي جميعا حكايات قديمة وإشاعات وقيل وقال وأساطير، كلها مختلطة بعضها ببعض مثل "بودنغ" صنع بسرعة! ومع ذلك يا "**تومي**" فهناك واقعة واحدة فعلية وليست مجرد إشاعة أو خرافة..

– ماذا تعني؟

– أعنى أن دُمية بالية وقعت فعلا من المدخنة في المنزل المجاور للقناة، وهي دمية طفل وكانت هناك منذ وقت طويل جدا وقد غطاها التراب.

– من المؤسف أنها ليست في حوزتنا. وقالت "**توبنس**" بانتصار:

– إنها في حوزتي أنا.

– هل أخذتها معك؟

– نعم، فقد أدهشتني كما تعرف، وفكرت أن آخذها معي وأفحصها، ولم يكن أحد يريدها وأظن أن آل "**بيري**" كانوا سيلقون بها في سلة المهملات في الحال.. إنها معي هنا. ونهضت من الكنبة وذهبت إلى حقيبتها وقلبت فيها قليلا ثم أخرجت منها شيئا ملفوفا في صحيفة وقالت "**توبنس**" :

– هاك يا "**تومي**" ألق نظرة. وفك "**تومي**" الورق بعناية وأخرج منه حطام الدمية وقد تفتت ثيابها البالية عندما أمسكها، وبدا أن الدمية مصنوعة من جلد سويدي رفيع جدا خُيط فوق جسم كان فيما مضى ممتلئا من حشوه بالقش ولكنه الآن –وقد تسرب منه القش من هنا وهناك– أصبح غير متماسك، وبينما كان "**تومي**" يفحصها برفق سقط الجسم فجأة وانفتح كجرح كبير خرجت منه كمية من القش وفيها حصيات صغيرة تدحرجت على الأرض، وراح "**تومي**" يجمعها بعناية وهو يقول لنفسه: "ياإلهي يا إلهي!" . قالت "**توبنس**" :

– كم هذا غريب.. إنها مليئة بالحصيات فهل تعتقد أن هذا جزء من المدخنة وقد بدأت تتفتت؟ وربما الجبس قد بدأ ينهار؟

– كلا، فإن هذه الحصيات كانت في داخل جسم الدمية، وكان قد جمعها بعناية ثم بدأ يدخل أصبعه داخل حطام الدمية فوقع منها حصيات أخرى وأخذها إلى جوار النافذة وقلبها في يده، و"توبنس" تراقبه وهي لا تفهم ثم قالت:

– إن فكرة حشو دمية بحصيات فكرة غريبة.

– إنها ليست حصيات عادية، وأظن أن هناك سببا وجيها جدا لذلك.

– ماذا تعني؟

– انظري إلى بعضها.. تناوليها. وأخذت من يده بعضها وهي تتعجب وقالت:

– إنها حصيات فقط وبعضها كبير والبعض الآخر صغير، فلماذا أنت متأثر بهذه الدرجة؟

– لأني بدأت أفهم الأمور يا "توبنس"، فهذه ليست حصيات يا عزيزتي.. إنها ماسات.

❖❖❖❖❖

الفصل الرابع عشر

شهقت "توبنس":

– ماس! ونظرت إليه ثم إلى الحصيات التي كانت ما تزال في يدها وقالت:

– أهذه الأشياء المتربة ماسات؟ وأومأ "تومي" وقال:

– إن الأمر بدأ ينجلي يا "توبنس" فقد أصبح مترابطا مع المنزل المجاور للقناة والصورة. انتظري حتى يسمع "إيفور سميث" عن هذه الدمية، فإنه قد أعد لك باقة من الورد قبل هذا الاكتشاف الجديد يا "توبنس".

– لماذا؟

– من أجل مساعدتك في الإمساك بعصابة كبيرة!

– أظن أنك كنت مشغولا بهذا مع صديقك "إيفور" طوال الأسبوع الماضي، وتخليت عني في آخر أيام نقاهتي في هذا المستشفى الكئيب في الوقت الذي كنت في حاجة لأحاديث لامعة لرفع معنوياتي.

– كنت أحضر في ساعات الزيارة كل مساء.

– لم تخبرني بالكثير.

– لقد حذرتني الممرضة الشرسة ألا أثيرك ولكن "**إيفور**" نفسه سيأتي هنا بعد يومين وقد رتبنا حفلة اجتماعية صغيرة في الإبراشية.

– من سيكون موجوداً؟

– السيدة "**بوسقوان**"، وأحد ملاك الأراضي الكبار وصديقتك "**نيلي بلاي**" والقس بالطبع وأنا.

– والسيد "**إيفور سميث**".. ما اسمه الحقيقي؟

– إن اسمه على قدر ما أعرف هو "**إيفور سميث**".

– إنك دائما حذر جدا.. وضحكت "**توبنس**" فجأة:

– ماذا يضحكك؟

– كنت أفكر في أني كنت أود رؤيتك أنت و"**ألبرت**"، وأنتما تكتشفان الأدراج السرية في مكتب الخالة "**آده**".

– إن الفضل كله لـ"**ألبرت**"، وقد ألقى عليَّ محاضرة في الموضوع، فقد تعلَّم كل شيء عن الأدراج السرية في شبابه من تاجر عاديات.

– تصور أن خالتك "**آده**" تركت حقيقة وثيقة سرية مثل هذه مغلقة بإحكام، وهي لم تكن تعرف شيئا في الواقع، ولكنها كانت على استعداد لتصديق أن هناك شخصا خطرا في "**سوني ريدج**"، وإني لأتساءَل إن كانت تعرف أنها الآنسة "**باكار**".

– هذه هي فكرتك فقط.

– إنها فكرة جيدة جدا، ولو كان الذين نبحث عنهم هم عصابة مجرمين فإنهم سيحتاجون لمكان مثل "**سوني ريدج**"، مكان محترم ويُدار بمهارة؛ لأن التي تديره هي مجرمة قديرة، وفي نفس الوقت لها الحق في أن تكون المخدرات في متناول يدها عندما تحتاج إليها، وهي حين تتقبل أي ميتة على أنها ميتة طبيعية تؤثر على الطبيب فيعتقد أن لا غبار عليها. واستطردت "**توبنس**" وهي تفكر:

– سأقول لك شيئا آخر يا "**تومي**".. لنفرض أن هذه الصورة.. صورة المنزل المجاور للقناة لم تكن أبدا ملكا للسيدة "**لنكستر**". ونظر إليها "**تومي**" بدهشة وقال:

- ولكننا نعرف أنها كانت ملكها.

- كلا.. نحن لا نعرف، فإن الذي نعرفه فقط هو أن الآنسة "**باكار**" قالت ذلك.. إن الآنسة "**باكار**" هي التي قالت إن السيدة "**لنكستر**" أهدتها للخالة "**آده**".

- ولكن لماذا.. وتوقف "**تومي**" عن الكلام.

- ربما يكون هذا هو سبب رحيل السيدة "**لنكستر**".. لكي لا تقول لنا إن الصورة ليست ملكها وإنها لم تعطها للخالة "**آده**".

- أعتقد أن هذه فكرة بعيدة الاحتمال. قال "**إيفور سميث**":

- إنك تبدين في صحة جيدة يا سيدة "**تومي**". وأجابت "**توبنس**":

- إني أشعر بأني أصبحت في أتم صحة، وأظن أنه كان غباء مني أن أدعهم يضربونني على رأسي.

- إنك تستحقين وساما وبالأخص من أجل موضوع الدمية.. وأنا لا أعرف كيف تعثرين على هذه الأشياء! وقالت "**توبنس**" بشك:

- هل ستحرمونني من حضور الحفلة الليلة؟

- كلا بالتأكيد، فأنت تعرفين أن هناك بعض الأمور التي يجب جلاؤها، وليس بوسعي أن أعبر لك عن امتناني لكما، ولو أننا كنا نتقدم في تقصي هذه العصابة المسؤولة عن عدد مذهل من السرقات خلال الست السنوات الماضية، وكما قلت لـ"**تومي**" عندما جاء يسألني إذا كنتُ أعرف أي شيء عن صديقنا السيد القانوني الماهر السيد "**إيكولز**"، لقد كنا نشك فيه منذ زمن طويل ولكنه ليس بالرجل الذي يمكن العثور على أدلة إدانة ضده بسهولة لأنه حريص جدا، ثم إنه يمارس مهنة المحاماة، وهي مهنة طبيعية حقيقية وله عملاء حقيقيون.. وسلسلة المنازل، كما سبق أن قلت لـ"**تومي**"، هي إحدى النقط المهمة في منازل حقيقية ومحترمة يعيش فيها أناس محترمون لفترات قصيرة ثم يتركونها. والآن شكرا لك يا سيدة "**تومي**" ولتحرياتك التي بفضلها قد عثرنا بالتأكيد على أحد هذه المنازل، وهو منزل أخفيت فيه كمية معينة من المسروقات. والنظام الذي كانوا يتبعونه نظام بارع جدا، فإنهم كانوا يستبدلون بالمجوهرات والمسروقات الأخرى المختلفة ماسا غير مصقول ثم يخفونه، وعندما يحين الوقت يهربون الماس بالطائرة أو بواسطة سفن صيد عندما يهدأ البحث

عن السرقة المعينة.

– وماذا عن آل "بيري"؟ إنهما.. إني آمل ألا يكون لهما ضلع في الأمر؟ السيد "سميث":

– لسنا متأكدين، ويبدو لي أنه من المحتمل أن تعرف السيدة "بيري" على الأقل شيئا، وهي بالتأكيد كانت تعرف شيئا فيما مضى.

– هل تعني أنها كانت فعلا أحد أفراد العصابة؟

– قد لا يكون الأمر كذلك، فقد تكون تحت سطوتهم.

– كيف؟

– إني أعرف أن بوسعك الاحتفاظ بالأسرار، والحقيقة هي أن البوليس المحلي كان دائما يشك في أن الرجل المسؤول عن موجة جرائم قتل الأطفال منذ عدة أعوام في هذه المنطقة هو "آموس بيري"؛ لأنه ليس متمالكا تماما لقواه العقلية، وكان رأى الأطباء أنه من الممكن بسهولة أن ينتابه شعور يدفعه إلى قتل الأطفال، ولم يكن هناك أبدا أي دليل ثابت ضده، وربما كان السبب في ذلك هو أن زوجته كانت على استعداد دائما للشهادة في صالحه ولو كذبا، ولذلك فلو علم أناس بمثل هذه الأمور وكانوا بغير ضمائر فبوسعهم أن يضعوها كمستأجرة في جزء من المنزل حيث أنهم يعلمون أنها ستغلق فمها وقد تكون لديهم أدلة دامغة ضد زوجها، وقد قابلت آل "بيري" يا سيدة "تومي"، فما هو شعورك نحوهما؟ فقالت "توبنس":

– لقد أعجبتني، أما هو فقد أخافني مرة أو مرتين فقد بدا فجأة ضخما ومخيفا لمجرد دقيقة أو دقيقتين، ولم أستطع أن أتبين مم خفت وأظن أني شعرت أنه ليس عاقلا تماما.

– يوجد كثيرون مثله، وهم ليسوا خطرين بالمرة في أغلب الأحيان، ولكن ليس بوسع المرء أن يتأكد من ذلك أو أن يعرف ذلك.

– ما الذي سنفعله الليلة في الإبراشية؟

– سنوجه بعض الأسئلة ونقابل بعض الناس ونكتشف بعض الأشياء التي قد تمدنا بمعلومات أخرى من التي نحتاج إليها.

– هل سيكون الرائد "وترز" هناك؟ إنه الرجل الذي كاتب القس بخصوص طفلته؟

– لا يبدو أن هذا الشخص له وجود! وكان هناك تابوت مدفون في المكان الذي أزيل

من فوقه الشاهد القديم، وهو تابوت طفل مصنوع من الرصاص ومملوء بالمجوهرات والذهب وهي أشياء سرقت من مكان قريب من "**سنت البني**"، وكان هدف الخطاب الذي أرسل إلى القس هو التأكد مما حدث للمقبرة. قال القس وهو يتقدم نحو "**توبنس**" باسطا يديه:

– كم أنا آسف يا عزيزتي.. نعم.. فقد أزعجني بالفعل أن يحدث لك هذا بينما كنت تقومين مدفوعة بكرمك لمساعدتي، وقد شعرت حقيقة، نعم شعرت بأنها غلطتي وأني ما كان يجب أن أتركك تنقبين بين المقابر وفي الحقيقة لم يكن لدينا سبب لنعتقد أنها عصابة من الأشرار. وقالت الآنسة "**بلاي**" –وقد ظهرت فجأة بجواره–:

– لا تزعج نفسك أيها القس، فانا متأكدة أن السيدة "**توبنس**" تعرف أن لا علاقة لك بالذي حدث لها، وقد كان جميلا جدا منها أن تعرض مساعدتها ولكن كل شيء انتهى الآن على خير حال، أليس كذلك يا سيدة "**توبنس**"؟ وقالت "**توبنس**" وقد استاءت قليلا؛ لأن الآنسة "**بلاي**" أخذت على نفسها أن تجيب بثقة بأن صحتها جيدة:

– بالتأكيد. وقالت الآنسة "**بلاي**":

– تعالي واجلسي هنا وضعي وسادة خلف ظهرك. وقالت "**توبنس**" وهي ترفض المقعد الذي كانت الآنسة "**بلاي**" تشده نحوها:

– إني لا أحتاج لوسادة. وجلست بدلا من ذلك في مقعد غير مريح بالمرة في الناحية الأخرى من المدفاة. وسُمع طرق عال على الباب الأمامي، وأجفل جميع الموجودين، وهرعت الآنسة "**بلاي**" وهي تقول:

– لا تقلق أيها القس سأذهب أنا.

– من فضلك.. إن هذا كرم شديد منك. وسُمعت أصوات خافتة في البهو خارج الغرفة ثم دخلت الآنسة "**بلاي**" وهي تصاحب امرأة ضخمة مرتدية ثوبا من البروكيه وخلفهما رجل طويل نحيف شاحب الوجه وكان يرتدي معطفا أسود فضفاضا، وكان وجهه النحيل يبدو مثل وجه من قرن آخر –وفكرت "**توبنس**" وهي تحدق إليه– "إنه مثل شخصية حية من لوحات الرسام "**الجريكو**"". وقال القس:

– أنا سعيد جدا لرؤيتك. ثم استدار وقال:

– اسمحوا لي أن أقدم السير "**فيليب ستارك**".. السيد والسيدة "**بيريسفورد**" والسيد "**إيفور سميث**".. آه، السيدة "**بوسقوان**" إني لم أركِ منذ عدة سنوات.

وقالت السيدة "**بوسقوان**":

– لقد سبق أن تعرفت على السيد "**بيريسفورد**". ثم نظرت إلى "**توبنس**" وقالت:

– كيف حالك، إني سعيدة لمعرفتك وقد سمعت أنه وقع لك حادث.

– نعم وأنا بخير الآن. وجلست "**توبنس**" في مقعدها بعد أن تم التعارف وقد شعرت بالتعب ينتابها –كما كان يحدث– الآن أكثر من ذي قبل، وعللت ذلك لنفسها بانه نتيجة لارتجاج المخ. وجلست بهدوء وعيناها نصف مغلقتين، وكانت مع ذلك تراقب جميع الموجودين عن كثب، ولم تكن تستمع إلى الحديث بل كانت فقط تنظر حولها وكان لديها شعور داخلي بأن بعض شخصيات الدراما –التي تورطت فيها رغما عنها– موجودة هناك مثلما يحدث في فصل درامي، وأن الأمور بدأت تتكون وتتبلور وأن قدوم السير "**فيليب**" والسيدة "**بوسقوان**" كشف عن شخصيات لم تكن معروفة من قبل وأن لهما صلة بالموضوع، وتساءلت عن سبب مجيئهما هنا هذا المساء؟ هل استدعاهما شخص ما؟ "**إيفور سميث**"؟ هل طالب بحضورهما أو طلب ذلك برفق؟ أو ربما هما غريبان عنه مثلما هما غريبان عنها؟ وفكرت: "إن الأمر كله بدأ في "**سوني ريدج**" ولكن "**سوني ريدج**" ليست المركز الحقيقي للموضوع وإنما المركز الحقيقي كان دائما هنا في "**سوتون شنسلور**" منذ زمن طويل، وهو لا يتعلق بالسيدة "**لنكستر**" ولكنها تورطت فيه دون أن تعلم، ولذلك فأين السيدة "**لنكستر**" الآن؟" وشعرت "**توبنس**" بقشعريرة وفكرت: "أعتقد أنها ربما ماتت". وكان شعور "**توبنس**" هو أنه إذا كان الأمر كذلك فقد أخفقت، فقد بدأت بحثها وهي قلقة على السيدة "**لنكستر**"، وكانت تشعر أن السيدة "**لنكستر**" مهددة بخطر ما، وكانت قد صممت على العثور عليها وحمايتها، ومضت "**توبنس**" تفكر: "وإذا لم تكن ميتة فهذا هو ما سأفعله". وراحت "**توبنس**" تنظر إلى السير "**فيليب**" وتتذكر ما قالته عنه السيدة "**كوبلي**".. أيكون السير "**فيليب**" قاتلا؟ وراحت تدرسه من خلال جفونها النصف مغلقة، وهي تدرك تماما أنها تدرسه لتعرف إن كان

يشبه بأية طريقة قاتلا -وقاتل أطفال- كما تتصوره في مفهومها. وتساءلت عن سنه.. إنه يبدو في السبعين على الأقل وربما أكبر وله وجه زاهد متعب، نعم وجه زاهد بالتأكيد، وهو وجه رجل معذب، وهاتان العينان الكبيرتان مثل أعين "**الجريكو**".. والجسم النحيل... وتساءلت عن سبب مجيئه هذا المساء؟ وانتقلت عيناها للآنسة "**بلاي**" التي كانت تجلس بقلق فوق مقعدها وهي تقرب منضدة من شخص ما بين حين وآخر أو تعرض وسادة أو تغير وضع علبة السجائر أو علبة الكبريت، وكانت قلقة ومضطربة، وكانت تنظر للسير "**فيليب**" وتسترخي في كل مرة تنظر فيها إليه. وفكرت "**توبنس**": "منتهى التفاني وإني أعتقد أنها كانت بلا ريب تحبه في يوم ما، وأعتقد أنها مازالت تحبه، فالإنسان لا يكف عن حب إنسان آخر لأنه كبر، كما يظن أمثال "**ديريك**" و"**ديبورا**"، فهما لا يستطيعان أن يتصورا أن أي واحد بوسعه أن يحب إلا إذا كان شابا، ولكنني أعتقد أنها -أنها مازالت تحبه بدون أي أمل وبمنتهى التفاني.. ألم يقل أحد- هل كانت السيدة "**كوبلي**" أو القس - إن الآنسة "**بلاي**" كانت في شبابها سكرتيرته، وإنها مازالت ترعى شؤونه هنا؟ إنه أمر طبيعي فكثيرا ما تقع السكرتيرات في غرام رؤسائهن.. ولنفرض أن "**نيلي بلاي**" كانت تحب "**فيليب ستارك**" فهل هذه واقعة مفيدة بالمرة؟ وهل عرفت أو شكت الآنسة "**بلاي**" في أن حبها لشخصية "**فيليب ستارك**" الهادئة الزاهدة يمكن أن يكون خيطًا فظيعًا من الجنون؟ «كان دائما مغرما بالأطفال.. مغرما بالأطفال أكثر من اللازم.. هذا هو رأيي» هكذا تحدثت عنه السيدة "**كوبلي**". وفكرت "**توبنس**": "ما لم يكن المرء طبيبا نفسانيا أو طبيب أمراض عقلية فإنه لا يعرف شيئا عن القتلة المجانين. لماذا يريدون قتل الأطفال؟ ما الذي يدفعهم لذلك؟ وهل يأسفون بعد ذلك على ما فعلوا؟ وهل يشعرون بالاشمئزاز؟ هل يكونون في غاية التعاسة وهل يكونون في غاية الرعب؟". وفي هذه اللحظة، لاحظت أن نظرته وقعت عليها وتقابلت أعينهما وبدا أن في عينيه رسالة ما.. وكانت العينان تقولان: "**إنك تفكرين فيَّ**.. نعم إن ما تفكرين فيه صحيح، فأنا رجل تطاردني أفكار سوداء". نعم إن هذا يصفه تماما، فإنه رجل مطارد.. وأبعدت عينيها عنه بصعوبة وتحولت نظرتها إلى القس.. إنها تحب القس فهو رجل لطيف.. هل يعرف شيئا؟ قد يعرف شيئا أو قد يعيش وسط

مؤامرة شريرة دون أن يتطرق إليه أي شك، ومن المحتمل أن تحدث أمور كثيرة حوله بدون أن يعلم بها لأنه رجل بريء جدا. السيدة "**بوسقوان**"؟ من الصعب معرفة شيء عنها فإنها امرأة متوسطة العمر لها شخصية، كما يقول "**تومي**" ولكن هذا ليس كافيا لمعرفتهما وفجأة نهضت السيدة "**بوسقوان**" كما لو كانت "**توبنس**" قد نادتها وقالت:

– هل هناك مانع من صعودي إلى الدور العلوي لأغتسل؟

– لا مانع بالطبع! وقفزت الآنسة "**بلاي**" واقفة.

– سآخذك إلى هناك.. هل تسمح لي أيها القس؟ فقالت "**بوسقوان**":

– إني أعرف الطريق تماما، فلا تزعجي نفسك.. سيدة "**بيريسفورد**"؟ وأجفلت "**توبنس**" قليلا وقالت لها السيدة "**بوسقوان**":

– سأريك المكان فتعالي معي. ونهضت "**توبنس**" كطفلة مطيعة وتبعت السيدة "**بوسقوان**" إلى الطابق الأعلى. وقالت السيدة "**بوسقوان**":

– إن غرفة الضيوف في أعلى السلم وهي دائما معدّة وبها حمام ملحق بها. وفتحت الباب في أعلى السلم ودخلت وأضاءت النور وتبعتها "**توبنس**". وقالت السيدة "**بوسقوان**":

– إني سعيدة جدا لأني وجدتك هنا، وقد كنت أرجو هذا فقد كنت قلقة عليك. هل أخبرك زوجك بذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– فهمت إنك قلت شيئا.

– نعم، كنت قلقة. وأغلقت الباب خلفهما كما لو كانت تهيئ مكانا خاصا لاستشارة خاصة وقالت "**إيما بوسقوان**":

– هل شعرت بأن "**سوتون شنسلور**" مكان خطر؟

– إنه كان خطرا عليَّ.

– نعم أعرف ذلك، ومن حسن الحظ أنه لم يكن أسوأ، ولكني أعتقد أن بوسعي أن أفهم ما حدث. إنك تعرفين شيئا عن هذا الموضوع أليس كذلك؟

– أعرف من ناحية ولا أعرف من ناحية أخرى، فإن المرء كما تعرفين لديه غريزة، شعور، وعندما تصدق فإن هذا أمر يثير القلق، وكل موضوع العصابة هذا يبدو غريبا

جدا ويبدو أن لا صلة له بـ« وتوقفت فجأة ثم تابعت الحديث» أعني أن العصابات مجرد أحد الأمور الجارية وهي دائما موجودة في الحقيقة. وعقبت "**إيما بوسقوان**" :

– ولكن العصابات الآن منظمة جيدا جدا مثل الأعمال الحرة ولا توجد أي خطورة منها، وإنما الخطر يجيء من أشياء أخرى، ويجب أن يعرف المرء أين الخطر وكيف يحمي نفسه منه، ويجب أن تحترسي يا سيدة "**بيريسفورد**" . يجب حقا أن تحترسي فإنك أحد الأشخاص الذين يتدخلون في الأمور بتسرع، ومن الخطر أن تفعلي ذلك هنا. وقالت "**توبنس**" ببطء:

– أخبر شخص ما خالة "**تومي**" العجوز بأن هناك قاتلا في المصحة التي كانت تنزل بها، والتي ماتت فيها. وأومأت "**إيما**" برأسها ومضت "**توبنس**" تقول:

– حدثت وفاتان في تلك المصحة يشكُّ الطبيب فيهما.

– هل هذا هو الذي حفَّزك للبدء في البحث؟

– كلا بل بدأت قبل ذلك.

– لو كان لديك وقت فهل يمكن أن تروي لي بسرعة جدا –وبأسرع ما تستطيعين لأن شخصا ما قد يقاطعنا– عما حدث في هذه المصحة أو بيت السيدات المسنات مما جعلك تبدئين البحث في هذا الموضوع.

– نعم أستطيع أن أقول بسرعة، وفعلت ذلك. السيدة "**بوسقوان**" :

– فهمت، وألا تعرفين أين هذه السيدة العجوز، السيدة "**لنكستر**"، الآن؟

– كلا، لا أعرف.

– هل تعتقدين أنها ماتت؟

– أعتقد أنها قد تكون ميتة.

– لأنها كانت تعرف شيئا؟

– نعم، فهي كانت تعرف شيئا عن جريمة قتل طفل صغير..

– أعتقد أنك مخطئة في ذلك، وأعتقد أن الأمر اختلط على السيدة العجوز، وقد اختلط عليها موضوع الطفل بموضوع جريمة قتل أخرى.

– أظن أن هذا محتمل، فإن المسنين يختلط عليهم الأمر ولكن كان هنا قاتل أطفال مازال طليقا أليس كذلك؟ أو هكذا قالت لي المرأة التي كنت أقيم عندها.

– نعم، وقعت عدة جرائم قتل أطفال في هذه المنطقة، ولكن هذا كان منذ زمن طويل كما تعرفين، وأنا لا أعرف شيئا عنها وكذلك القس، فهو لم يكن موجودا هنا في ذلك الوقت، ولكن الآنسة "بلاي" كانت موجودة.. نعم نعم كانت هنا بلا ريب، وكانت شابة صغيرة في ذلك الوقت... فقالت "توبنس":

– هل كانت دائما مغرمة بالسير "فيليب"؟ ألاحظت ذلك؟

– نعم أعتقد ذلك فقد كانت تعبده، وقد لاحظنا أنا و"ويليام" ذلك عندما جئنا هنا لأول مرة..

– ما الذي جعلكما تأتيان هنا؟ هل كنتما تقيمان في منزل القناة؟

– كلا، نحن لم نقم فيه قط، ولكن زوجي كان يحب رسمه وقد رسمه عدة مرات. ما الذي حدث لتلك الصورة التي أراني إياها زوجك؟

– أعادها للبيت مرة أخرى وذكر لي ما قلته له عن القارب الذي لم يرسمه زوجك، القارب الذي يسمى "وتر ليلي".

– نعم لم يرسمه زوجي، وآخر مرة رأيت الصورة لم يكن فيها القارب وقد رسمه شخص ما بعد ذلك.

– وسماه "وتر ليلي"، وكاتب رجل لا وجود له الرائد "وترز" القس بخصوص قبر طفلة اسمها "ليلي"، ولكن لم تكن هناك طفلة مدفونة في هذا القبر وإنما كان به فقط تابوت ممتلئ بغنائم سرقة كبيرة.. إن رسم القارب كان –بدون شك– رسالة تحدد مكان المسروقات، ويبدو أن كل شيء مرتبط بالجريمة..

– نعم، إنه يبدو كذلك ولكن لا يستطيع المرء أن يتأكد من.. وتوقفت السيدة "بوسقوان" فجأة وقالت بسرعة:

– إنها صاعدة تبحث عنا، اذهبي إلى الحمام.

– من؟

– "نيلي بلاي".. ادخلي بسرعة للحمام واقفلي الباب بالمزلاج. وقالت "توبنس" وهي تختفي في الحمام:

– إنها مجرد فضولية.

– بل هي أكثر من ذلك. وفتحت الآنسة "بلاي" الباب ودخلت بنشاط وقالت:

– آه، أرجو أن تكوني قد وجدت كل ما تريدينه؟ أرجو أن تكوني قد وجدت فوطا نظيفة وصابونا؟ إن السيدة "**كوبلي**" تجيء وتخدم القس ولكن يجب أن أتأكد من أنها تقوم بعملها كما يجب. ونزلتا السيدة "**بوسقوان**" والآنسة "**بلاي**" معا ولحقت بهما "**توبنس**" بينما كانتا على وشك دخول غرفة الجلوس، ونهض السير "**فيليب**" وأعد لها مقعدا ثم جلس بجانبها.

– هل تفضلين المقعد هكذا يا سيدة "**بيريسفورد**"؟

– نعم، أشكرك فإنه مريح جدا. وقال بصوت عميق جذاب:

– إني آسف لما سمعت عن الحادث الذي وقع لك.. إن كل هذه الحوادث التي تقع هذه الأيام محزنة جداً. وكانت عيناه تحدقان إليها وفكرت: "إنه يدرسني مثلما كنت أدرسه" وألقت نظرة سريعة على "**تومي**" ولكن "**تومي**" كان يتحدث مع السيدة "**بوسقوان**".

– ما الذي أتى بك إلى "**سوتون شنسلور**" في أول الأمر يا سيدة "**بيريسفورد**"؟

– أوه! إننا نبحث عن منزل في الريف، وكان زوجي يحضر مؤتمرا وفكرت أن أقوم بجولة في منطقة لطيفة من الريف لأرى ما يوجد بها والثمن الذي سيكون على المرء دفعه.

– سمعت أنك ذهبت وعاينت المنزل الواقع بجوار القناة.

– نعم، فقد لاحظته مرة من القطار وهو منزل جذاب جدا من الخارج.

– نعم، ولو أني أظن أن المنزل يحتاج حتى من الخارج إلى إصلاحات كثيرة للسقف وخلافه.

– إنه ليس جذابا من الناحية الأخرى، أليس كذلك؟

– كلا، ويبدو لي أنها طريقة غريبة لقسمة منزل.

– آه، إن الناس تختلف أفكارهم أليس كذلك؟

– ألم تقم فيه قط؟

– كلا كلا.. إن منزلي احترق منذ عدة سنوات وما يزال جزء منه موجودا، وأظن أنك رأيته أو أراك إياه أحد، فإنه فوق الإبراشية على تل أو ما يسمونه تلا في هذه المنطقة، ولم يكن قط شيئا يفتخر به أحد، وقد بناه أبي حوالي عام 1890، وكان

قصرا فخما يجمع بين الطراز القوطي ولمسة من "**بلمورال**"، والمهندسون المعماريون المعاصرون يُعجبون بهذا الطراز الآن، ولو أنه كان يعتبر قبيحا قبل أربعين عاما وكان فيه كل ما يلزم منزل "**جنتلمان**" (وكان صوته ساخرا قليلا) فكانت به غرفة للبلياردو وغرفة مكتب وصالون للسيدات وغرفة ضخمة للطعام وغرفة للحفلات وحوالي أربع عشرة غرفة نوم وكان فيه –على ما أظن– أربعة عشر خادما للعناية به.

– يبدو أنك لم تكن تحبه كثيرا.

– أنا لم أحبه أبدا، وخيبت أمل أبي فيَّ، فقد كان صاحب مصانع ناجحا جدا، وكان يأمل أن أتبع خطاه ولكني لم أفعل وقد أحسن معاملتي وأعطاني إيراداً ضخما أو مصروفا شخصيا –كما كان يُسمى– وسمح لي أن أفعل ما أشاء.

– سمعت أنك كنت عالم نباتات.

– نعم، كانت هذه إحدى هواياتي، وكان من عادتي أن أذهب للبحث عن الزهور البرية في "**البلقان**" خصوصا.

– إنه يبدو مكانا جميلا جدا.. ثم كنت تعود وتعيش هنا؟

– لم أقم هنا من عدة أعوام وفي الواقع لم أرجع لأعيش هنا منذ أن ماتت زوجتي.

وارتبكت "**توبنس**" قليلا وقالت:

– آه إني.. إني آسفة.

– لقد مر الآن زمن طويل، فقد ماتت قبل الحرب في عام 1938، وكانت امرأة جميلة جدا.

– هل ما زالت لديك صور لها في منزلك هنا؟

– كلا، فالمنزل خال وكل الأثاث والصور أُرسلت للتخزين وهناك فقط غرفة نوم ومكتب وغرفة جلوس لاستقبال مدير أعمالي عندما يجيء أو لاستعمالي عندما أجيء إذا اضطررت للمجيء لأباشر أعمال أملاكي..

– ألم تبع أبدا؟

– كلا، وهناك بعض الحديث عن تحسين الأرض هنا ولكني لا أشعر بأي شيء تجاه ذلك، وقد كان والدي يأمل في أنه يؤسس أبعادية إقطاعية تتوارثها الأجيال، وإني سأرثه ويرثني أولادي إلخ، ولكن "**جوليا**" وأنا لم نرزق بأطفال أبدا. وقالت "**توبنس**" برفق:

– آه، إني أرى.

– ولذلك فلا يوجد شيء أعود إليه هنا، وفي الواقع أنا لا أكاد أعود إلى هنا أبدا، وإذا كنت أحتاج إلى شيء فـ"**نيلي بلاي**" تقوم به نيابة عني (وابتسم نحوها) إنها أبدع سكرتيرة ومازالت تباشر أعمالي أو أي شيء من هذا القبيل.

– إنك لا تأتي هنا أبدا، ومع ذلك لا ترغب في بيعه؟ فقال السير "**فيليب**" :

– هناك سبب وجيه جدا لذلك. وأشرقت ابتسامة فوق أساريره الصارمة، واستطرد قائلا:

– ربما ورثت بعض غرائز أبي العملية، فإن الأرض كما تعرفين تزداد قيمتها بطريقة عظيمة، وهي أفضل استثمار فقيمتها تزداد يوما بعد يوم، ومن يعرف فربما ستقام مدينة سكنية كبيرة فوق هذه الأرض يوما ما..

– وحينئذ ستصبح غنيا.

– سأكون رجلا أغنى من الآن.

– ماذا تفعل معظم الوقت؟

– إني أسافر، فلديٍّ أشياء كثيرة تهمني في "**لندن**"، فعندي معرض للصور هناك، وأنا خبير فني وكل هذه أمور شيقة وتملأ وقت المرء حتى تأتي اللحظة التي توضع فيها يد على كتفك، اليد التي تقول "ارحل من هذا العالم".

– كف.. إن هذا له رنة.. إنه يجعلني أقشعر..

– لا داعي لأن يجعلك تقشعرين يا سيدة "**بيريسفورد**" فأنا أعتقد أنك ستعيشين حياة طويلة وسعيدة.

– إني الآن سعيدة جدا، وأظن أني سأصاب بكل متاعب المسنين وبكل أوجاعهم: الصمم والعمى والتهاب المفاصل... إلخ.

– إنك لن تهتمي بها كثيرا كما تعتقدين، فيبدو أنك تحيين حياة سعيدة مع زوجك.

– آه، نحن سعداء وأظن في الحقيقة أنه لا يوجد شيء يضاهي حياة زوجية سعيدة في الحياة أليس كذلك؟ وتمنت في الحال لو لم تنطق بهذه الكلمات فإنها كانت تشعر أن الرجل الجالس أمامها ما زال حزينا على فقد زوجته المحبوبة.. وشعرت بالغضب من نفسها.

❖❖❖❖❖

الفصل الخامس عشر

كان صباح اليوم التالي للحفلة، وتوقف "**إيفور سميث**" و"**تومي**" عن حديثهما وتبادلا النظرات إلى "**توبنس**"، وكانت "**توبنس**" تحدق إلى المدفأة وتبدو شاردة. وقال "**تومي**":

– أين وصلنا في حديثنا؟ وتنهدت "**توبنس**" ورجعت من حيث كانت شاردة، ونظرت إلى الرجلين وقالت:

– إن الأمر مازال كله يبدو لي معقدا، فلأي غرض أقيمت حفلة أمس؟ وماذا كانت تعني؟ (ونظرت إلى "**إيفور سميث**") أظن أنه كان لها معنى لكما.. أتعرفان ما وصلنا إليه؟ فقال "**إيفور**":

– لن أجزم بذلك، فإننا لا نسعى وراء نفس الشيء، أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– ليس تماما. ونظر إليها الرجلان يتساءلان فقالت "**توبنس**":

– حسنا، إني امرأة تتسلط عليها فكرة، فأنا أريد أن أعثر على السيدة "**لنكستر**" وأريد أن أتأكد أنها بخير. قال "**تومي**":

– يجب أن تعثري على السيدة "**جونستون**" أولا، فلن تجدي السيدة "**لنكستر**" أبدا حتى تعثري على السيدة "**جونستون**".

– السيدة "**جونستون**".. نعم إني لأتساءل.. (واتجهت بالحديث لـ"**إيفور**") ولكن أظن أن هذا الجزء من الموضوع لا يهمك بالمرة.

– بل إنه يهمني كثيرا يا سيدة "**تومي**".

– وماذا عن السيد "**إيكولز**"؟ وابتسم "**إيفور**" وقال:

– أعتقد أن السيد "**إيكولز**" سينال عقابه قريبا، ولو أني لست متأكدا تماما، فإنه رجل يخفي آثاره بمهارة لا تصدق لدرجة أن المرء يتخيل أنه لا يوجد في الحقيقة أثر بالمرة، ثم أضاف مفكرا بصوت خافت:

– إنه إداري ومخطط عظيم. وقالت "**توبنس**" ببعض التردد:

– هل يمكن أن ألقي أسئلة عن الليلة الماضية؟ وقال لها "**تومي**":

– بوسعك أن تسألي ولكن لا تنتظري أي جواب مرضٍ من "**إيفور**". فتساءلت

"**توبنس**" :

– ما دور السير "**فيليب ستارك**"؟ إنه لا يبدو كمجرم إلا لو كان من الطراز الذي.. وتوقفت بسرعة وهي تمنع نفسها من ذكر تخيلات السيدة "**كوبلي**" عنه كقاتل أطفال. فأجاب "**إيفور سميث**" :

– إن دور السير"**فيليب**" هو أنه مصدر قيم جدا للمعلومات، فإنه أكبر ملاك الأراضي هنا وفي أنحاء أخرى من البلاد.

– في "**كومبرلند**". ونظر إليها "**إيفور**" بحدة وقال :

– "**كومبرلند**"؟ لماذا تذكرين "**كومبرلند**"؟ ما الذي تعرفينه عن "**كومبرلند**" ياسيدة "**تومي**"؟ هزت "**توبنس**" رأسها :

– لا شيء، لقد تذكرت هذا الاسم لسبب أو آخر لا أعرفه. وعبست وبدت عليها الحيرة :

– وأتذكر وردة حمراء ووردة أخرى بيضاء على جانب من منزل.. وردة من طراز قديم. وهزت رأسها ثم قالت :

– هل يملك السير "**فيليب**" المنزل المجاور للقناة؟

– إنه يملك الأرض، وهو يملك معظم الأرض في هذه المنطقة.

– نعم، فقد قال ذلك في الليلة الماضية.

– لقد استطعنا أن نعرف الكثير عن عقود الإيجارات والمستأجرين، وهي أشياء أُخفيت بمهارة عن طريق تعقيدات القانون.

– هل هناك شائبة على هؤلاء السماسرة الذين ذهبت إليهم في ميدان "**مركيت باسنج**" أم هل أنا التي تخيلت ذلك؟

– لم تتخيلي ذلك، وسنذهب لزيارتهم هذا الصباح وسنوجه إليهم بعض الأسئلة المحرجة.

– حسنا.

– إننا نتقدم تقدما مرضيا وقد كشفنا أمر السرقة الكبيرة للبريد التي حدثت في عام 1965، كما كشفنا أمر سرقات "**البوري كروس**" وسرقة قطار البريد الإيرلندي، وقد عثرنا على بعض الغنائم التي أخفيت في أماكن أعدت بمهارة في هذه المنازل: حمام جديد تم تركيبه في منزل منها، وشقة غرفتها أصغر مما يجب في منزل آخر وبهذه

الطريقة أوجدوا مكانا خاليا، أوه! نعم اكتشفنا أشياء كثيرة. فقالت "**توبنس**" :

– ولكن مـاذا عن الناس؟ أعني الناس الذين فكروا أو أداروا هذا.. أعني خلاف السيد "**إيكولز**" إذ يوجد بلا ريب أشخاص آخرون كانوا يعرفون شيئا. فأجاب "**إيفور سميث**" :

– آه، نعم كان هناك رجلان أحدهما يدير ملهى ليليًا قريبا من الطريق الرئيسي وكانوا يسمونه "**هابي هاميش**" وهو مثل الزئبق لا يمكن الإمساك به، وامرأة كانوا يسمونها "**كيت**" القاتلة ولكن هذا كان منذ زمن طويل –وهي إحدى المجرمات المهمات، وكانت فتاة جميلة ولكن قواها العقلية مختلة وقد أبعدوها عنهم، فقد كان من الممكن أن تصبح خطرا عليهم، فإنهم قوم عمليون يسعون وراء الغنائم وليس وراء جرائم القتل.

– وهل كان منزل القناة أحد مخابئهم السرية؟

– كان كذلك في وقت من الأوقات، وكان يسمى في هذا الوقت "**ليدي ميد**" وقد غُير اسمه عدة مرات. فقالت:

– لمجرد أن يصعبوا الأمور على ما أظن.. "**ليدي ميد**" إني أتساءل إن كان هذا له علاقة بشيء معين.

– مثل؟؟

– إنه في الحقيقة لا يرتبط بشيء، ولكن هذا الاسم جعلني أفكر في خيط آخر، والمشكلة هي أني لا أعرف في الحقيقة ما أعنيه بهذا الكلام الآن، واللوحة أيضا تحيرني فقد رسمها "**بوسقوان**" ثم رسم شخص آخر قاربا ووضع اسما له.

– "**تيجر ليلي**" .

– كلا "**وتر ليلي**" وتقول زوجته إنه لم يرسم هذا القارب.

– وهل يا ترى بوسعها أن تحكم على هذا حكما صحيحا؟

– نعم، أظن ذلك فلو كان المرء متزوجا رساما وبالأخص لو كان هو نفسه فنانا، فأعتقد أنه يستطيع أن يميز بين رسم شخص ورسم شخصٍ آخر، ثم أضافت "**توبنس**" :

– وأعتقد أنها مخيفة...

– من.. السيدة "**بوسقوان**" ؟

– نعم، فإنها قوية ولها شخصية جبارة ثم هي تعرف أمورا كثيرة، وأمورا تشعر بها بغريزتها. فعقَّب "**تومي**" :

– إنها إذن مثلك يا "**توبنس**" . ومضت "**توبنس**" تقول :

– إن الموضوع كله يدور حول منزل القناة والناس المختلفين الذين عاشوا فيه، وإن السيدة "**كوبلي**" اختلطت عليها الحوادث والتواريخ مثلما يحدث كثيرا للناس في الريف، ولذلك صعب الأمر، وإن الناس في الريف لا يتذكرون التواريخ وإنما يتذكرون الحوادث، فهم مثلا لا يقولون "لقد حدث هذا في عام 1930" ولكنهم يقولون "لقد حدث هذا في العام الذي احترقت فيه الطابونة القديمة" . واختتمت حديثها بقولها :

– إن المشكلة هي أني تقدمت في السن. وقال "**إيفور**" :

– إنك ستظلين شابة إلى الأبد . وقالت "**توبنس**" :

– لا تكن مجنونا، فأنا عجوز لأني أتذكر الأمور بنفس الطريقة، وقد عُدتُ إلى الطرق البدائية لأساعد ذاكرتي. ومضت تذرع الأرض ذهابا وإيابا وقالت :

– هذا فندق يغيظ. ودخلت إلى غرفة نومها ورجعت مرة أخرى وهي تهز رأسها وقائلة :

– لا يوجد إنجيل!!

– إنجيل؟

– نعم، ففي الفنادق المحافظة يوجد دائما إنجيل بجوار السرير، وأظن أن السبب لذلك هو أن يستطيع المرء أن يتوب إلى الله في أي وقت من النهار أو الليل، ولكن لا يوجد هنا إنجيل.

– هل تريدين إنجيلا؟

– أنا أريد واحدا فعلا، فقد أُحسنت تربيتي وكنت فيما مضى أحفظ الإنجيل جيدا كأي ابنة طيبة لرجل دين، ولكن الآن الناس تنساه بالأخص لأنهم لم يعودوا يقرؤون الدروس الدينية كما يجب، وإنما يقرؤون ترجمة أخرى للإنجيل تغيرت فيها الكلمات القديمة وأضافت :

– سأذهب بالسيارة إلى "**سوتون شنسلور**" في أثناء زيارتكما لسماسرة المنازل. وقال "**تومي**" :

– لأي غرض؟ أنا لا أسمح لك بهذا.

– هراء، فأنا لن أذهب للقيام بتحريات ولكني سأذهب فقط إلى الكنيسة وأطّلع على الإنجيل، ولو كانت النسخة عصرية فسأذهب للقس وأطلب منه النسخة الأصلية وسأجدها عنده على ما أظن.

– ولماذا تريدين النسخة الأصلية؟

– إني أريد فقط أن أتذكر معنى هذه الكلمات التي كانت مكتوبة على شاهد الطفلة فإنها أثارت فضولي.

– ولكني لا أثق يا "**توبنس**" بأنك لن تقعي في متاعب بمجرد غيابك عن عيني.

– إني أعدك بأني لن أتجول بين المقابر بعد ذلك، وأن كل ما سأفعله هو زيارة الكنيسة ومكتب القس في صباح مشمس فهل يوجد شيء أقل خطورة من ذلك.

ونظر "**تومي**" لزوجته بشك ثم رضخ.

❖❖❖❖❖

نظرت "**توبنس**" حولها بعناية قبل أن تدخل أرض الكنيسة وكانت قد تركت سيارتها بجوار البوابة، وكانت تشعر بشك طبيعي في هذا المكان الذي هوجمت فيه من قبل، ولكن لا يبدو أن هناك الآن أي مجرمين يختبئون خلف الشواهد. ودخلت الكنيسة حيث كانت هناك امرأة متقدمة في السن جاثية على ركبتيها وهي تلمّع بعض الأدوات النحاسية، واقتربت "**توبنس**" من الإنجيل الذي كان موضوعا فوق المحراب وراحت تتصفحه ونظرت إليها المرأة باستياء، فقالت لها "**توبنس**" لتطمئنها:

– إني لن أسرقه. ثم أغلقته بعناية وخرجت على أطراف أناملها من الكنيسة. وكانت "**توبنس**" تود لو أنها فحصت المكان الذي جرى فيه الحفر لكشف المسروقات، ولكنها كانت قد وعدت ألا تفعل ذلك بأي حال. وتمتمت لنفسها: "هناك كائن لابد أنه أخطأ، وقد يكون ذلك عملاً مقصودا ولكن لو كان الأمر كذلك فيجب أن يكون شخص." وقادت السيارة إلى الإبراشية القريبة وغادرت السيارة ومشت في الممر إلى الباب الخارجي ودقت الجرس، ولكنها لم تسمع له أي رنين وقالت "**توبنس**" الخبيرة بأجراس الإبراشيات:

– أظن أن الجرس به خلل. ودفعت الباب ففُتح ووقفت داخل البهو، وكان هناك ظرف كبير يحتل جزءا كبيرا من المنضدة في البهو وكان يحمل اسما لجمعية تبشيرية

في "إفريقيا" وفكرت "**توبنس**" : "إني سعيدة لأني لست مبشرة." وكان هناك شيء له صلة بمنضدة بهو.. شيء كان يجب أن تتذكره.. زهور؟ أوراق شجر؟ رسالة أو طرد؟ وفي هذه اللحظة خرج القس من الباب الذي على يسارها وقال:

– آه! هل تريدين رؤيتي؟ أنا آه.. سيدة "**بيريسفورد**" أليس كذلك؟

– تماما، إن ما جئت أسألك عنه هو إن كان لديك إنجيل؟ وقال القس وهو يبدو في شك:

– إنجيل؟ إنجيل؟

– ظننت أنه من المحتمل أن يكون لديك واحد.

– بالطبع، بالطبع، وأعتقد أن لديَّ عدة نسخ منه في الواقع، ثم قال:

– لديَّ النسخة اليونانية.. أظن أن هذا ليس ما تريدين؟

– كلا، إني أريد النسخة الأصلية.

– يوجد منها –بلا ريب– عدد في المنزل، نعم، عدد كبير ويؤسفني أن أقول إننا لم نعد نستعملها في الكنيسة الآن، فإني يجب أن أوافق "**المطران**" على آرائه، وهو يفضل النسخة العصرية من أجل الشباب، وأنا أعتقد أن هذا أمر مؤسف ولديَّ عدد كبير جدا من الكتب في مكتبتي هنا لدرجة أن بعضها يختفي وراء البعض الآخر، ولكني أعتقد أن بوسعي أن أجد لك طلبك، وإن لم أجده فسنسأل الآنسة "**بلاي**"، فهي هنا في مكان ما تفحص الأواني التي سيستعملها الأطفال لوضع زهورهم البرية في ركن الأطفال في الكنيسة، وترك "**توبنس**" في البهو ورجع إلى الغرفة التي كان قد خرج منها. ولم تتبعه "**توبنس**" وإنما ظلت في البهو تفكر عابسة، وفجأة رفعت رأسها ونظرت إلى الباب الواقع في نهاية البهو وقد فُتح ودخلت منه الآنسة "**بلاي**" وهي تحمل إناء معدنيا ثقيلا جدا.. وتذكرت "**توبنس**" عدة أمور وقالت:

– بالطبع.. بالطبع.

– هل بوسعي أن أقدم أي مساعدة أنا.. أوه! السيدة "**بيريسفورد**".

– نعم، وأنت السيدة "**جونستون**" أليس كذلك؟ وسقط الإناء الثقيل على الأرض وانحنت "**توبنس**" والتقطته ووقفت وهي تزنه في يدها ثم قالت:

– سلاح طيب في متناول اليد. ثم وضعته على المنضدة وقالت:

– إنه الشيء المناسب لضرب شخص من الخلف.. وهذا هو الذي فعلته بي، أليس

كذلك يا سيدة "**جونستون**"؟

– أنا.. أنا.. ما الذي قلته؟ أنا.. أنا.. أنا لم.. ولكن لم تكن هناك حاجة لأن تظل "**توبنس**" بعد ذلك هناك فقد رأت تأثير كلماتها وقد كشفت الآنسة "**بلاي**" نفسها بطريقة واضحة عندما ذكرت اسم السيدة "**جونستون**" لثاني مرة، وكانت الآنسة "**بلاي**" في غاية الارتباك والخوف وترتعش. وقالت "**توبنس**":

– كان هناك خطابات على المنضدة في البهو في منزلك في ذلك اليوم الآخر، وكانت مرسلة إلى السيدة "**يورك**" في عنوان في "**كومبرلند**"، وهذا هو المكان الذي أخذتها إليه عندما أخذتها من "**سوني ريدج**"، أليس كذلك يا سيدة "**جونستون**"؟ وهي هناك الآن.. السيدة "**يورك**" أو السيدة "**لنكستر**".. إنك استعملت كلا الاسمين "**يورك**" و"**لنكستر**". واستدارت بسرعة وخرجت من المنزل تاركة الآنسة "**بلاي**" وهي لا تزال تسند نفسها على درابزين السلم، وكان فمها مفتوحا وتحدق في دهشة وجرت "**توبنس**" حتى البوابة وقفزت في سيارتها وأطلقت لها العنان، وألقت نظرة خلفها نحو الباب الخارجي ولكن أحدا لم يخرج منه، وسارت "**توبنس**" متجهة نحو "**مركيت باسنج**" ولكنها غيرت رأيها وأدارت السيارة ورجعت من الطريق الذي كانت قد جاءت منه، وسارت في الطريق المؤدي إلى قنطرة منزل القناة وغادرت السيارة، ونظرت من فوق البوابة لترى إن كان أي من آل "**بيري**" في الحديقة، ولكنها لم تجد أثرا لأي منهما، ودخلت من البوابة وسارت إلى الباب الخلفي ولكنه كان أيضا مغلقا وكانت النوافذ أيضا مغلقة. وشعرت "**توبنس**" بالاستياء.. ربما ذهبت "**أليس بيري**" لـ"**مركيت باسنج**" لتتسوق وكانت "**توبنس**" تريد أن ترى "**أليس بيري**" على وجه الخصوص، وطرقت "**توبنس**" الباب في أول الأمر برفق ثم بصوت عال ولكن أحدا لم يجب، وأدارت المقبض ولكن الباب لم يُفتح فقد كان مغلقا بإحكام ووقفت هناك وهي مترددة. كانت هناك بعض الأسئلة تريد أن تلقيها على "**أليس**"، ومن المحتمل أن تكون السيدة "**بيري**" في "**سوتون شنسلور**" وفي وسع "**توبنس**" أن ترجع إلى هناك، ولكن صعوبة المنزل المجاور للقناة هو أنه يبدو أنه لا يوجد أبدا أي شخص في الناحية، ولا تكاد تكون هناك أية عربات تمر فوق القنطرة، وهكذا لا يوجد أحد يمكن سؤاله عن المكان الذي ذهب إليه آل "**بيري**" في هذا الصباح.

❖❖❖❖❖

الفصل السادس عشر

وقفت "**توبنس**" أمام الباب وهي عابسة ثم فجأة فُتح الباب على غير انتظار، وتراجعت "**توبنس**" خطوة إلى الخلف وشهقت، فإن الشخص الذي كان يواجهها كان آخر من تتوقع أن تراه، فعلى عتبة الباب كانت تقف السيدة "**لنكستر**" بنفسها، وهي مرتدية نفس الملابس التي كانت ترتديها في "**سوني ريدج**" وتبتسم بنفس الابتسامة المبهمة. وهتفت "**توبنس**" :

– أوه!

– صباح الخير. هل تريدين السيدة "**بيري**"؟ إنه يوم السوق ومن حسن الحظ أني استطعت أن أفتح لك الباب، فإني لم أستطع العثور على المفتاح في الحال، وأعتقد على أي حال أنه دون شك مفتاح مطابق للأصل ولكن تفضلي بالدخول.. هل تحبين تناول فنجان شاي أو شيئًا آخر؟ وخطَّت "**توبنس**" عتبة الباب وهي في شبه حلم وقادت السيدة "**لنكستر**" "**توبنس**" إلى غرفة الجلوس، وهي ما تزال تتصرف مثل مضيفة لبقة. وقالت السيدة "**لنكستر**" :

– تفضلي بالجلوس.. إني أخشى أني لا أعرف مكان الفناجين والأدوات الأخرى، فأنا هنا منذ يومين فقط والآن.. دعيني أتذكر.. إني قابلتك بالتأكيد قبل الآن أليس كذلك؟ قالت "**توبنس**" :

– نعم عندما كنت في "**سوني ريدج**" .

– "**سوني ريدج**" .. "**سوني ريدج**" .. يبدو أن هذا يذكِّرني بشيء.. آه بالطبع، الآنسة "**باكار**" العزيزة.. نعم إنه مكان لطيف جداً.

– إن بعض الناس نزاعون للسيطرة جدا، وهم يستعجلونني كثيرا ولا يفسحون وقتا لأرتب الأمور أو لأحزم ملابسي كما يجب أو لأفعل أي شيء، ونيتهم حسنة بالتأكيد، وبالطبع أنا أحب جدا "**نيلي بلاي**" العزيزة ولكنها من الطراز المسيطر جدا، وأضافت السيدة "**لنكستر**" وهي تميل نحو "**توبنس**" وتشير إلى جبينها بإشارة ذات مغزى:

– وإني أعتقد أحيانا أنها ليست عاقلة تماما، وهذه أمور تحدث بالطبع للعوانس خصوصا، فإنهن مغرمات بالأعمال الخيرية ولكنهن يصبن بتخيلات غريبة في بعض

الأحيان، والقساوسة يعانون كثيرا منهن، فإن هؤلاء النساء يتخيلن في بعض الأحيان أن القس عرض عليهن الزواج، ولكنه في الحقيقة لم يفكر في شيء من هذا القبيل أبدا.. آه نعم مسكينة "**نيلي**" فإنها منطقية جدا في بعض الأمور وهي مدهشة في أعمال الإبراشية هنا، وكانت دائما على ما أعتقد سكرتيرة من الدرجة الأولى، ولكن مع ذلك تنتابها أفكار غريبة في بعض الأحيان مثل انتزاعها لي –بدون إنذار سابق– من "**سوني ريدج**" ثم ذهابها بي إلى "**كومبرلند**"، وهو منزل كئيب جدا ومرة أخرى أتت بي فجأة إلى هنا. حسنا، إن كان في وسعك أن تسمي هذه إقامة، فإنه ترتيب غريب جدا وأنا هنا منذ يومين فقط. وكنت قبل ذلك في "**روز تريليس كورت**" في "**كومبرلند**". إنه اسمٌ جميلٌ مثل "**سوني ريدج**"، ألا تعتقدين ذلك؟ وأنا في الواقع لم أستقر فيه حقيقة، ولم تكن إدارته جيدة، فلم تكن الخدمة بمثل جودة الخدمة في "**سوني ريدج**"، وكانت القهوة من نوع رديء، ومع ذلك كنت قد بدأت أعتاد الأمور، وتعرفت على سيدتين إحداهما كانت تعرف بالخالة "**لي**" منذ عدة أعوام معرفة وثيقة، وإنه لمن اللطيف كما تعلمين أن يجد المرء أناسا لهم اتصال به بشكل أو بآخر.

– تماما. ومضت السيدة "**لنكستر**" تقول بمرح:

– والآن دعيني أتذكر، أعتقد أنك لم تأت لـ"**سوني ريدج**" للإقامة ولكن لزيارة إحدى النزيلات هناك.

– نعم، لزيارة الآنسة "**فانشو**" خالة زوجي.

– آه نعم.. نعم، إني أتذكر بالطبع الآن.. ألم يكن هناك شيء بخصوص طفلة لك خلف المدخنة؟

– كلا لم تكن طفلتي.

– ولكن هذا هو سبب مجيئك هنا، أليس كذلك؟ لقد صادفتهم متاعب مع المدخنة هنا، وقد فهمت أن طائرا وقع فيها.. إن هذا المكان يحتاج لاصلاحات، لست مرتاحة لوجودي هنا بالمرة.. كلا لست مرتاحة بالمرة وسأخبر "**نيلي**" بذلك بمجرد أن أراها.

– هل تقيمين مع السيدة "**بيري**"؟

– إني أقيم معها من جهة ولا أقيم معها من جهة أخرى، وأعتقد أن بوسعي أن أبوح

لك بسر أليس كذلك؟

– آه نعم، بوسعك أن تثقي بي.

– حسنا، إني لست أقيم هنا بالمرة، أعني ليس في هذا الجزء من المنزل، فهذا هو الجزء الخاص بآل "بيري" وانحنت إلى الأمام وقالت:

– وهناك جزء آخر، لو صعدت إلى الطابق الأعلى.. تعالي معي وسأُريك.. ونهضت "توبنس" وهي تشعر أنها في حلم مجنون، وقالت السيدة "لنكستر":

– إني سأغلق الباب أولا فهذا آمن. وقادت "توبنس" إلى سلم ضيق يؤدي إلى الطابق الأعلى ثم عبرتا غرفة نوم كبيرة تبدو فيها آثار لأناس يشغلونها –وهي غرفة آل "بيري" على الأرجح– ثم دخلت من باب آخر إلى غرفة أخرى تحتوي فقط على حوض ودولاب كبير من خشب القبقب، وذهبت السيدة "لنكستر" إلى الدولاب وتلمست شيئا في مؤخرته ثم دفعته إلى جانب بسهولة مفاجئة، وكان يبدو أن هناك عجلات للدولاب وانزلق بعيدا عن الحائط بسهولة، وكانت خلف الدولاب مدفأة، وهو شيء غريب كما فكرت "توبنس"، كان فوق المدفأة مرآة تحتها رف صغير عليه تماثيل من الصيني للطيور. وأمسكت السيدة "لنكستر" الطائر الذي كان في الوسط –بين دهشة "توبنس"– وشدته بقوة وكان يبدو أن الطائر مثبت على المدفأة، وقد استطاعت "توبنس" بلمسة سريعة أن تتأكد من أن كل الطيور مثبتة، ولكن كنتيجة لما فعلته السيدة "لنكستر" سُمع صوت (كليك) وتحركت المدفأة بأكملها من الحائط وخرجت عنه. وقالت السيدة "لنكستر":

– عمل حاذق، أليس كذلك؟ لقد بني هذا منذ زمن طويل عندما قاموا بتعديلات في المنزل، وكانوا يسمون هذه الغرفة جحر القس، ولكني لا أعتقد أنها كانت كذلك ولم أعتقد أبدا أنها كانت لها علاقة بالقس.. ادخلي من هنا فهذا هو المكان الذي أعيش فيه الآن. ودفعت الحائط دفعة، فانفتح إلى الخلف وبعد دقيقة كانتا في غرفة واسعة جميلة لها نوافذ تطل على القناة وعلى التلال المواجهة له. وقالت السيدة "لنكستر":

– إنها غرفة جميلة، أليس كذلك؟ ولها منظر جميل جدا أحببته دائما، فقد عشت هنا وأنا فتاة صغيرة.

– آه فهمت.

– إنه ليس منزلا محظوظا بل كانوا دائما يقولون إنه منزل منحوس وأضافت السيدة "**لنكستر**" :

– أعتقد أني سأقفل هذا ثانية، فإن الإنسان لا يمكن أن يحترس بما فيه الكفاية أليس كذلك؟ ومدت يدها ودفعت الباب الذي دخلتا منه فأُغلق مرة أخرى وسُمع صوت حاد حين رجع إلى مكانه الأول. وقالت "**توبنس**" :

– أظن أن هذه إحدى التعديلات التي أجروها للمنزل عندما أرادوا استخدامه كمخبإ. عقبت السيدة "**لنكستر**" :

– لقد قاموا بتعديلات كثيرة.. تفضلي بالجلوس.. هل تفضلين مقعدا وثيرا أم مقعداً عاليا؟ أنا شخصيا أفضل مقعدا عاليا، فإني مصابة بالروماتيزم وأظن أنك اعتقدت أنه قد يكون هنا جثة طفل وأضافت :

– إنها فكرة سخيفة ألا تعتقدين ذلك؟

– نعم ربما. وقالت السيدة "**لنكستر**" :

– عساكر وحرامية.. إن الإنسان عندما يكون صغيرا يكون ساذجا وكل هذه الأمور.. عصابات.. سرقات كبيرة.. تجذبه وتعتقد الواحدة أن كونها عشيقة مجرم أبدع شيء في العالم –وكانت هذه فكرتي في يوم ما– ولكن صدقيني (وانحنت إلى الأمام وربتت على حجر "**توبنس**") صدقيني إن هذا ليس صحيحا.. لقد كان هذا هو رأيي في يوم ما ولكن المرء يحتاج إلى أكثر من هذا، فإنه لا توجد أية إثارة حقيقية من مجرد سرقة أشياء والإفلات بها، والأمر بالطبع يحتاج إلى تنظيم جيد.

– أتعنين السيدة "**جونستون**" أو الآنسة "**بلاي**" – كيفما تسمينها.

– إنها بالطبع دائما "**نيلي بلاي**" بالنسبة إليَّ ولكن لأمر أو لآخر، لكي تسهل الأمور كما تقول.. تسمي نفسها السيدة "**جونستون**" بين حين وآخر، ولكنها لم تتزوج أبدا.. آه كلا.. فإنها عانس.. وسمع صوت طرق من تحتهما. قالت السيدة "**لنكستر**" :

– يا إلهي، إنهما آل "**بيري**"، وقد عادا بلا ريب لم أكن أظن أنهما سيعودان بهذه السرعة. وسمع الطرق مرة أخرى. وقالت "**توبنس**" :

– ربما يستحسن أن ندخلهما.

– كلا يا عزيزتي، لن نفعل ذلك أنا لا أطيق تدخل الناس دائما ونحن نتبادل حديثا

لطيفا جدا، أليس كذلك؟ أعتقد أننا سنظل هنا.. آه، إنهما الآن يناديان من تحت النافذة.. انظري لتري من المنادي. وذهبت "توبنس" إلى النافذة وقالت:

- إنه السيد "بيري". وهتف السيد "بيري" من أسفل:

- "جوليا"! "جوليا"! وقالت السيدة "لنكستر":

- إنها وقاحة، فأنا لا أسمح لأمثال "آموس بيري" بمناداتي باسمي، كلا بالتأكيد، ثم أضافت:

- لا تقلقي يا عزيزتي فنحن هنا بأمان، وبوسعنا أن نتبادل حديثا لطيفا وسأروي لك كل شيء عن نفسي، فقد كانت حياتي حياة مثيرة مليئة بالأحداث وفي بعض الأحيان أفكر في أنه يجب أن أكتب عنها، فقد تورطت، وكنت فتاة جموحا.. مع عصابة من المجرمين وكان بها بعض الناس من الطبقة العليا.

- الآنسة "بلاي"؟

- كلا، كلا، فلم يكن للآنسة "بلاي" أية صلة أبدا بالجريمة.. ليس "نيلي بلاي" فإنها متدينة جدا كما تعرفين، ولكن هناك طرق مختلفة للدين وربما تعرفين هذا؟

- أظن أن هناك عقائد كثيرة ومختلفة.

- نعم، يجب أن توجد من أجل الناس العاديين ولكن هناك آخرين خلاف الناس العاديين، فهناك أناس مخصوصون تحت قيادات مخصوصة وهناك فرق مخصوصة، أتفهمين ما أعنيه يا عزيزتي؟

- لا أعتقد أني أفهم.. ألا تعتقدين أننا يجب أن ندخل آل "بيري" إلى بيتهما؟ لقد بدءا يتضايقان.

- كلا، لن ندخلهما حتى.. حتى أقول لك كل شيء عن الأمر ولا يجب أن تخافي يا عزيزتي، فالأمر كله طبيعي جدا ولا يضر، ولا يوجد ألم من أي نوع بل سيكون مثل النوم ولا أسوأ من ذلك. وحدقت "توبنس" إليها ثم قفزت وذهبت نحو الباب الذي في الحائط. وقالت لها السيدة "لنكستر":

- لن تستطيعي الخروج من هذا الطريق، فأنت لا تعرفين مكان القبضة، وهي ليست في المكان الذي تظنين بالمرة، وأنا فقط أعرف مكانها كما أعرف كل أسرار هذا المكان، فقد عشت هنا مع المجرمين عندما كنت فتاة حتى تركتهم، وعفا الله عني عفوا خاصا وقد طلب مني أن أكفِّر عن ذنبي، عن الطفلة التي قتلتها، فقد كنت راقصة ولم أكن

أريد طفلة.. وهناك على الحائط صورتي وأنا راقصة.. ونظرت إلى حيث كانت السيدة "**لنكستر**" تشير، وكان على الحائط لوحة بالزيت بالحجم الطبيعي لفتاة في ثوب من ورق الشجر من الساتان الأبيض ومكتوبا عليها اسم "**وتر ليلي**".

– إن "**وتر ليلي**" كان من أحسن أدواري، فهكذا قال الجميع، وعادت "**توبنس**" ببطء وجلست وهي تحدق إلى السيدة "**لنكستر**" وكلمات ترن في رأسها، كلمات كانت قد سمعتها في "**سوني ريدج**": هل كانت طفلتك المسكِينة؟ وقد شعرت حينئذ بالخوف، وهي تشعر الآن بالخوف ولم تكن حتى الآن متأكدة مم كانت خائفة، ولكنه كان نفس الخوف الذي ينتابها وهي تنظر إلى هذا الوجه السمح وتلك الابتسامة الطيبة. ومضت السيدة "**لنكستر**" تقول:

– كان عليَّ أن أطيع الأوامر التي تصدر إليَّ فيجب أن يوجد مبعوثون للتدمير، وقد عينت في هذا العمل ورضيت به فإنهم لا يذنبون، أعني أن الأطفال يموتون بدون ذنوب، وهكذا كنت أرسلهم إلى الجنة.. كما كان مطلوبا مني.. وهم ما زالوا أبرياء ولم يعرفوا الشر، ويمكنك أن تري أي شرف عظيم أن يكون الواحد من النخبة المختارة، وكنت دائما أحب الأطفال ولم يكن لي أطفال، وكان هذا قاسيا أو كان يبدو قاسيا ولكنه في الحقيقة كان الجزاء عما فعلته، وربما تعرفين ما فعلته؟

– كلا.

– آه، لقد اعتقدت أنك ربما تعرفين هذا أيضا بما أنه يبدو أنك تعرفين الكثير.. كان هناك طبيب ذهبت إليه وكنت في السابعة عشرة فقط وخائفة، وقال إنه يمكن التخلص من الطفل بسهولة بدون أن يعرف أي شخص أبدا، ولكن لم يكن الأمر سهلا، فقد بدأت أحلم بأن الطفل دائما موجود ويسألني لماذا حُرم من الحياة، وقالت لي الطفلة إنها تريد زملاء.. وكانت طفلة، أنا متأكدة أنها كانت فتاة.. وكانت تأتي وتقول إنها تريد أطفالا آخرين، وعند ذلك تلقيت الأمر إذ لم يكن في وسعي أن أرزق بأطفال، وكنت قد تزوجت وفكرت أني سأرزق بأطفال، وكان زوجي يتمنى أن نرزق بأطفال ولكننا لم نرزق بهم لأني ملعونة.. أنت تفهمين ذلك، أليس كذلك؟ ولكن كانت هناك طريقة للتكفير عما فعلته، فالذي فعلته هو جريمة قتل، أليس كذلك؟ ولا يسع المرء أن يكفر عن جريمة قتل بجرائم قتل أخرى؛ لأن هذه الجرائم الأخرى لن تكون جرائم قتل في الحقيقة، وإنما ستكون تضحيات. وسيقدمون كضحايا.. أنت تدركين

الفارق، أليس كذلك؟ وكان الأطفال يذهبون ليؤنسوا طفلتي، وهم أطفال من أعمار مختلفة ولكنهم صغار وكان الأمر يجيئني، ثم... وانحنت إلى الأمام ولمست "**توبنس**" وقالت:

- إنه شيءٌ يسعدني القيام به.. إنك تفهمين، أليس كذلك؟ كانت سعادة لي أن أخلصهم حتى لا يعرفون الذنب مثلما عرفته أنا، ولم يكن بوسعي بالطبع أن أخبر أيَّ شخص، ولم يكن مسموحا أن يعرف أي شخص بهذا وكان هذا أمرًا يجب أن أتأكده، ولكن كان هناك أناس عرفوا به أو شكوا فيه وإذ ذاك بالطبع.. حسنا أعني أنه كان يجب أن يموتوا أيضا لكي أكون أنا في أمان، وهكذا كنت دائما في أمان تام.. أنت تفهمين، أليس كذلك؟

- ليس.. ليس تماما.

- ولكنك تعرفين، وهذا هو سبب مجيئك، أليس كذلك؟ أنت كنت تعرفين في ذلك اليوم الذي سألتك فيه في "**سوني ريدج**" «أكان طفلك المسكين؟» فقد رأيت ذلك من تعبير وجهك، وقد اعتقدت أنك ربما جئت لأنك أم لأحد الأطفال الذين قتلتهم، وكنت أرجو أن تعودي مرة ثانية، وكنا سنتناول كوبا من الحليب (اللبن) معا.. فإنه كان عادة الحليب وفي بعض الأحيان الكاكاو لأي شخص كان يعرف سري. وتحركت ببطء عبر الغرفة وفتحت دولابا في ركن منها. وقالت "**توبنس**":

- هل كانت السيدة "**مودي**" إحدى الضحايا؟

- آه، أتعلمين بأمرها.. إنها لم تكن أما بل كانت فيما مضى حائكة في المسرح وتعرفت عليَّ، ولذلك كان يجب أن تموت، واستدارت فجأة وعادت نحو "**توبنس**" وهي تحمل في يدها كوبا من الحليب وتبتسم بإغراء وقالت:

- اشربيه.. اشربيه فقط. وظلت "**توبنس**" صامتة للحظة ثم قفزت وهرعت إلى النافذة وأمسكت بمقعد وحطمت به الزجاج وأطلت خارج النافذة وصرخت:

- النجدة! النجدة! وضحكت السيدة "**لنكستر**" ووضعت كوب الحليب على المنضدة ومالت إلى الوراء في مقعدها وضحكت وقالت:

- كم أنت غبية.. من الذي تعتقدين أنه سيأتي؟ من الذي يستطيع أن يأتي هنا؟ إن عليهم أولا أن يكسروا الأبواب، وعليهم أن يدخلوا من هذا الحائط وحتى يحدث ذلك.. هناك طرق أخرى كما تعرفين ولا حاجة لأن يكون الحليب.. إن الحليب هو

طريقة سهلة.. الحليب والكاكاو وحتى الشاي، وقد وضعته للسيدة "**مودي**" في الكاكاو فإنها كانت تحب الكاكاو.

– من أين حصلت على "المورفين"؟

– آه، إن هذا كان سهلا، فقد كان هناك رجلٌ عشت معه عدة أعوام، مصابا بالسرطان وأعطاني الطبيب كمية من "المورفين" من أجله، كما أعطاني مخدرات وأدوية أخرى، وقلت فيما بعد إني رميتها جميعا ولكني احتفظت بها، فقد فكرت في أنها ربما تكون لها فائدة في يوم ما، وصدق ظني وما زالت عندي كمية منها، وأنا لا أتعاطى أي شيء من هذا القبيل، فأنا لا أؤمن بها ودفعت بكوب الحليب نحو "**توبنس**" وقالت:

– اشربيه، فإنها أسهل طريقة.. وأما الطريقة الأخرى فالمشكل هو أني لا أتذكر أين وضعته بالضبط. ونهضت من مقعدها وبدأت تمشي في الغرفة.

– أين وضعته؟ أين وضعته؟ إني أنسى كل شيء الآن، وقد كبرت. وهتفت "**توبنس**" مرة أخرى:

– النجدة! ولكن ضفة القناة كانت ما تزال خالية، وكانت السيدة "**لنكستر**" ما تزال تتجول في الغرفة.

– إني أعتقد.. إني أعتقد بالتأكيد.. آه بالطبع إنه في حقيبة التريكو. واستدارت "**توبنس**" من النافذة، وكانت السيدة "**لنكستر**" تتقدم نحوها وهي تقول:

– يا لك من امرأة غبية، أترغبين في هذه الطريقة؟ ومدت ذراعها اليسرى وأمسكت بكتف "**توبنس**" وظهرت ذراعها اليمنى من خلفها وكان بها سكين طويل رفيع وقاومت "**توبنس**" وهي تفكر: "بوسعي أن أوقفها بسهولة.. بسهولة فإنها امرأة عجوز وضعيفة ولا تستطيع.." وفجأة فكرت وقد اعترتها موجة من الخوف: "ولكن أنا أيضا امرأة عجوز ولست قوية مثلما أعتقد، بل لست في مثل قوتها فيداها وقبضتها قوية، وأظن أن السبب هو أنها مجنونة، والمجانين كما سمعت دائما أقوياء" واقترب منها السلاح اللامع وصرخت "**توبنس**" وكانت تسمع صيحات وطرقا عاليا من تحت كما لو أن شخصا ما كان يحاول كسر باب أو نافذة، ومر بفكر "**توبنس**": "ولكنهم لن يمروا أبدا من هذا الباب السري ما لم يكونوا يعرفون كيف يعمل." وقاومت بشراسة وكانت ما تزال تستطيع أن تبعد السيدة "**لنكستر**" عنها، ولكن

السيدة "**لنكستر**" كانت أضخم وأقوى، وكان وجهها لا يزال مبتسما، ولكنه لم يعد طيبا، وإنما كان يبدو كما لو كانت تستمتع بما تفعله. وهتفت "**توبنس**" :

- "**كيت**" القاتلة.

- أتعرفين اسم شهرتي؟ نعم، ولكني محوت هذا الاسم فقد أصبحت القاتلة بأمر الله، وإنها لإرادة الله أن أقتلك، وهكذا فلا لوم علي، أنت تفهمين هذا، أليس كذلك؟ أنت تدركين أن هذا يجعل الأمر لا غبار عليه، وكانت "**توبنس**" مودعة على جانب من مقعد كبير وكانت السيدة "**لنكستر**" تمسك بها وهي تضغطها على المقعد بيدها، ولم يعد هناك أي تراجع آخر، واقترب السلاح في يد السيدة "**لنكستر**" اليمنى. وفكرت "**توبنس**" : "يجب ألا يتملكني الرعب.. يجب ألا يتملكني الرعب.." ولكن تلت هذه الفكرة فكرة أخرى ملحة: "ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله؟" ولم يكن هناك جدوى من المقاومة، وشعرت بالخوف يغمرها.. الخوف الحاد التي شعرت به لأول مرة في "**سوني ريدج**".. هل هو طفلك المسكين؟ كان هذا هو أول إنذار.. ولكنها أساءت فهمه.. ولم تعرف أنه إنذار لها. وراحت تراقب بعينيها السلاح الذي يقترب منها، ولكن العجيب هو أن الذي كان يخيفها ويجعلها شبه مشلولة، لم يكن السلاح الرهيب ولكن كان وجه السيدة "**لنكستر**" المبتسم.. وجه امرأة سعيدة وراضية تقوم بالعمل المنوط بها. وفكرت "**توبنس**" : "إنها لا تبدو مجنونة.. هذا هو الأمر الفظيع.. وهي بالطبع لا تبدو هكذا؛ لأنها في رأيها هي عاقلة وطبيعية جدا. هذا هو ما تظنه.. آه.. "**تومي**".. "**تومي**" ما الذي أوقعت نفسي فيه في هذه المرة؟" وشعرت بالدوار وارتخت عضلاتها.. وسمعت صوتا عاليا لزجاج ينكسر، وكان هذا آخر ما تسمعه وهي تغوص في الظلام وتفقد وعيها.

❖❖❖❖❖

- هذا أفضل.. إنك تفيقين.. اشربي هذا يا سيدة "**بيريسفورد**". وكان هناك كوب ملتصق بشفتيها، وقاومت بوحشية.. حليب مسمم.. من الذي قال مرة شيئا عن حليب مسمم؟ إنها لن تشرب حليبا مسمما.. كلا إنه ليس بحليب مسمم، فإن له رائحة مختلفة تماما.. وارتخت وفتحت شفتيها.. وأخذت رشفة ثم قالت :

- "**براندي**".

– هيا اشربي. ورشفت "**توبنس**" مرة أخرى واستندت على الوسادة ونظرت حولها، وكان هناك جزء من سلم ظاهر من النافذة كما كانت هناك كمية من الزجاج المكسور على الأرض. وغمغمت "**توبنس**":

– لقد سمعت الزجاج وهو ينكسر. وأزاحت كأس "**البراندي**" ونظرت إلى وجه الرجل الذي كان ممسكا به وقالت:

– "**الجريكو**".

– نعم..

– إنه أمر لا يهم، ونظرت حولها في الغرفة.

– أين هي.. أعني السيدة "**لنكستر**"؟

– إنها.. ترتاح.. في الغرفة المجاورة.

– فهمت، ولكنها لم تكن متأكدة أنها فهمت، وستفهم أحسن عن قريب، وأما الآن فلا تستطيع أن تستوعب أكثر من فكرة واحدة. وقالت ببطء وبشك:

– السير "**فيليب ستارك**".. تماما، أليس كذلك؟

– نعم.. لماذا ناديتني بـ"**الجريكو**" الآن؟

– العذاب.. الصورة في "**توليدو**".. هكذا فكرت فيك منذ زمن طويل.. كلا ليس طويلا. وفكرت ثم تذكرت الليلة الماضية.. حفلة.. في الإبراشية.. وقال "**فيليب ستارك**" مشجعا:

– إنك تتقدمين. وكان يبدو –بطريقة ما– أمرًا طبيعيا أن تجلس هنا في هذه الغرفة وسط الزجاج المكسور وتتحدث مع هذا الرجل ذي الوجه الأسمر المعذب.

– لقد ارتكبت خطأ في "**سوني ريدج**".. أخطأت تماما فيما يخصها.. فقد خفت.. شعرت بموجة خوف حينذاك.. ولكني أسأت الفهم.. ولم أكن خائفة منها بل كنت خائفة من أجلها.. وظننت أنه سيصيبها مكروه.. وكنت أريد حمايتها.. كنت أريد إنقاذها.. أنا.. (ونظرت إليه بشك) هل تفهم؟ أو هل يبدو هذا هراء؟

– لا يوجد شخص يفهم أكثر مني.. لا يوجد أي شخص في هذا العالم. ونظرت إليه "**توبنس**" وهي عابسة ثم قالت:

– من.. من هي؟ أعني السيدة "**لنكستر**".. من هي حقيقة؟ وقال "**فيليب ستارك**" بجفاء:

– من هي؟ هي نفسها؟ الحقيقة.. على حقيقتها من كانت.. وقد كُتبت على جبينها علامة الله ثم قال:

– هل قرأت أبدا "**بيرجينت**" يا سيدة "**بيريسفورد**"؟ وذهب إلى النافذة ووقف هناك لحظة وهو ينظر منها.. ثم استدار فجأة..

– ليساعدني الله.. إنها كانت زوجتي.

– زوجتك.. ولكنها ماتت.. اللوحة التذكارية في الكنيسة.

– لقد نشرت رواية كاذبة بأنها ماتت في الخارج.. ووضعت لوحة تذكارية باسمها في الكنيسة، فالناس لا يحبون إلقاء أسئلة كثيرة على أرمل حزين، ولم أتم هنا بعد ذلك.

– قال بعض الناس إنها هجرتك.

– هذه أيضا كانت رواية مقبولة.

– هل أبعدتها عندما اكتشفت.. مقتل الأطفال؟

– وهكذا، فأنت تعلمين بذلك؟

– لقد أخبرتني هي.. وكان يبدو.. أمرا لا يصدق.

– كانت طبيعية جدا معظم الوقت.. ولم يكن في وسع أحد أن يتكهن بالحقيقة ولكن رجال البوليس كانوا قد بدؤوا يشكون.. وكان علي أن أفعل.. كان علي أن أنقذها.. أن أحميها، أتفهمين.. هل بوسعك أن تفهمي ولو قليلا؟

– نعم بوسعي أن أفهم تماما. وقال بصوت متهدج:

– كانت فيما مضى جميلة.. جميلة بدرجة كبيرة.. بوسعك أن تريها هناك (وأشار إلى اللوحة التي كانت معلقة على الحائط "**وتر ليلي**") كانت دائما فتاة جامحة.. وكانت أمها هي آخر أفراد أسرة "**روندر**".. وهي أسرة قديمة.. وكان اسمها "**هيلين روندر**" وهربت من البيت وتزوجت خريج سجون.. وصعدت ابنتها على خشبة المسرح.. تمرنت كراقصة باليه.. وكان "**وتر ليلي**" هو أشهر أدوارها.. ثم ارتبطت بعصابة من المجرمين –سعيا وراء المغامرة –لمجرد الإثارة.. وكانت دائما تصاب بخيبة أمل. وعندما تزوجتني كانت قد تخلت عن كل هذه الحياة الصاخبة.. وكانت تريد الاستقرار، كانت تريد أن تعيش حياة هادئة.. حياة عائلية.. وأطفالا وكنت غنيا وبوسعي أن أعطيها كل الذي تريده، ولكننا لم نرزق بأطفال وكان أمرًا محزنًا

لكلينا، وبدأت تنتابها نوبات من الشعور بالذنب.. وربما كانت دائما مختلة العقل قليلا.. فأنا لا أعرف.. وما قيمة الأسباب؟ إنها كانت.. (وأشار بيديه بيأس). أنا أحببتها. أحببتها دائما.. بصرف النظر عما كانت وعما فعلت، وكنت أريد أن أحافظ عليها.. وألا تحبس كسجينة مدى الحياة وهي تتعذب.. وقد حافظنا عليها لسنوات عديدة.

– نحن؟

– "**نيلي**".. عزيزتي المخلصة "**نيلي بلاي**".. كانت رائعة.. فقد خططت ورتبت الأمر كله.. بيوت السيدات المسنات.. كل راحة وأبهة وبدون إغراءات، بدون أطفال.. أبعدنا الأطفال عن طريقها.. وبدا أن هذه الفكرة ناجحة، فإن هذه البيوت في أماكن بعيدة.. "**كومبرلند**".. شمال "**ويلز**".. ومن المستبعد أن يتعرف عليها أحد.. أو هكذا خيل إلينا وكان هذا بناء على نصيحة السيد "**إيكولز**" وهو محام بارع. وكانت أتعابه مرتفعة ولكنني كنت أعتمد عليه. فتساءلت "**توبنس**":

– ابتزاز؟

– لم أفكر في الأمر هكذا، فقد كان صديقا ومستشارا.

– من الذي رسم القارب الذي في الصورة. القارب المسمى "**وتر ليلي**"؟

– أنا الذي رسمته، وكان يسرها، فقد كان يذكرها بانتصارها على المسرح، وكان أحد لوحات "**بوسقوان**" وكانت تحب رسومه.. ثم كتبت على القنطرة اسم طفل ميت، وهكذا رسمت القارب لأخفي الاسم وسميت القارب "**وترليلي**". وانفتح الباب الذي في الحائط.. ودخلت منه السيدة "**نيلي بلاي**" الودود ونظرت لـ"**توبنس**" ومنها إلى "**فيليب ستارك**" وقالت بلهجة عادية:

– هل أنت على ما يرام؟

– نعم، وكان من الواضح أن السيدة "**نيلي بلاي**" الودود أنها لن تثير ضجة.

– إن زوجك ينتظر في السيارة، وقد قلت له إني سأنزل بك إليه.. إذا كانت هذه هي الطريقة التي تفضلينها؟ فقالت "**توبنس**":

– هذه هي الطريقة التي أفضلها.

– خمنت ذلك (ونظرت نحو الباب المؤدي إلى غرفة النوم) هل هي.. هناك؟

قال "**فيليب ستارك**":

– نعم. ودخلت السيدة "**بيري**" غرفة النوم ثم خرجت منها وقالت وهي تنظر إليه باستفهام:

– فهمت.

– لقد قدمت كوب حليب (لبن) إلى السيدة "**بيريسفورد**".. ورفضته السيدة "**بيريسفورد**".

– وهكذا أظن أنها تناولته هي؟ وتردد ثم قال:

– نعم. السيدة "**بيري**":

– سيأتي الدكتور "**مورتيمر**" فيما بعد. وجاءت لتساعد "**توبنس**" في النهوض ولكن "**توبنس**" نهضت وحدها وقالت:

– إني لست مصابة.. كانت مجرد صدمة، وأنا الآن بخير. ووقفت في مواجهة "**فيليب ستارك**" ولم يبد أن هناك ما يقوله الواحد للآخر، ووقفت السيدة "**بيري**" قرب الباب، وأخيراً تكلمت "**توبنس**" وقالت:

– أهناك شيء أستطيع أن أفعله؟

– شيء واحد فقط.. إن التي ضربتك على رأسك في الجبانة كانت "**نيلي بلاي**".

وأومأت "**توبنس**" وقالت:

– لقد أدركت ذلك.

– لقد فقدت سيطرتها على نفسها، وظنت أنك تتبعين آثار سرنا وهي... إني آسف جدا على الضغط الشديد الذي حملتها إياه طوال هذه السنين، وهو أكثر مما يجب أن يطلب من أي امرأة. فقالت "**توبنس**":

– أظن أنها أحبتك كثيرا، ولكني لا أعتقد أننا سنمضي في البحث عن السيدة "**جونستون**" إذا كان هذا هو الذي تطلبه منا.

– شكرا لك.. إني ممتن جدا. ومرت فترة سكون أخرى، وانتظرت السيدة "**بيري**" بصبر ونظرت "**توبنس**" حولها ثم ذهبت للنافذة المكسورة ونظرت إلى القناة الهادئة تحتها وقالت:

– لا أظن أني سأرى أبداً هذا المنزل مرة أخرى وإني أنظر إليه بإمعان لكي أتذكره.

– وهل تريدين أن تتذكريه؟

– نعم، وقد قال لي شخص ما إنه منزل أُسيء استعماله، وأنا أعرف ماذا كان يعني.

ونظر إليها بتساؤل ولكنه لم يتكلم. وسألت "**توبنس**" :

– من الذي أرسلك هنا لتجدني؟

– "**إيما بوسقوان**" .

– خمنت هذا. ولحقت بالسيدة "**بيري**" وخرجتا من الباب السري. كانت "**إيما بوسقوان**" قد قالت لـ"**توبنس**" إنه منزل للعشاق.. حسنا إنها تتركه الآن وقد أصبح منزلا للعشاق.. إحداهما ميتة والآخر حيا ويتعذب. وخرجت من الباب إلى حيث كان "**تومي**" والسيارة ينتظران، وودعت السيدة الودود وركبت السيارة. وقال "**تومي**" :

– "**توبنس**" .

– أعرف.

– لا تفعلي هذا مرة أخرى.. لا تفعلي هذا أبدا.

– لن أفعل ذلك.

– هذا ما تقولينه الآن ولكنك ستفعلين ذلك في المستقبل.

– كلا، فقد كبرت وشخت. وأدار "**تومي**" السيارة وانطلقا.. وقالت "**توبنس**" :

– مسكينة "**نيلي بلاي**" .

– لماذا تقولين هذا؟

– إنها مغرمة جدا بالسير "**فيليب**" وفعلت كل هذا من أجله طوال هذه الأعوام.. ما أضيعه حبا وتفانيا.

– هراء! فإني أظن أنها استمتعت بكل دقيقة منها، فهكذا بعض النساء. وقالت "**توبنس**" :

– ليس لك قلبٌ.

– إلى أين تريدين الذهاب.. إلى فندق "**ذي لامب آند فلاج**" في "**مركيت باسنج**" ؟

– كلا.. أريد أن أعود إلى البيت.. للبيت يا "**توماس**" وأن أظل هناك.

– آمين، ولو استقبلنا "**ألبرت**" بدجاجة محروقة فسأقتله!

تمت بعون الله

أهم شخصيات الرواية

- السيد "**توماس بيريسفورد**" (**تومي**): ابن أخت السيدة "**فانشو**".
- السيدة "**بيريسفورد**" (**برودنس أو توبنس**): وهي زوجة "**توماس**".
- الخالة "**آده**" (**فانشو**): مسنة، نزيلة دار المسنين.
- الدكتور "**موري**": طبيب بدار المسنين.
- الآنسة "**باكار**": مديرة دار المسنين.
- الآنسة "**مارلين**": خادمة في دار المسنين.
- الآنسة "**جين**": ممرضة في دار المسنين.
- السيدة "**لنكستر**": نزيلة دار المسنين، صديقة الخالة "**آده**".
- السيد والسيدة "**جونستون**": من أقارب السيدة "**لنكستر**".
- "**ألبرت**": الخادم الوحيد لآل "**بيريسفور**".
- السيدة "**أليس بيري**": صاحبة المنزل الريفي.
- السيد "**آموس بردلي**": زوج السيدة "**أليس**" يهتم بزراعة الزهور بحديقة المنزل الريفي.
- الآنسة "**نيلي بلاي**": منسقة الزهور بالكنيسة، وتقوم بخدمة القس بها.
- السيدة "**إيما بوسقوان**": زوجة الرسام "**بوسقوان**" المشهور.
- "**إيكولز**" المحامي، الخبير القانوني.
- السير "**فيليب ستارك**": من أصحاب الأملاك.